# « النهضـــــة»

# في نظـر السلطـان برغـش

# من خلال وصف رحلة « تنزيـه الأبصـار »

د. أحمد ساسي الشتيوي

كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس

سلطنـة عُمـان

# « النهضـــة »
# فـي نظـر السلطـان برغـش
# من خلال وصف رحلة « تنزيـه الأبصـار »

د. أحمد ساسي الشتيوي
كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس
سلطنـــة عُمـــان

## ملخـــص :

النهضة ! نهضة العرب ! تلك المسألة الشائكة التي اختلفت فيها الآراء هي موضوع هذا البحث:

كان السلطان برغش بن سعيد (ح. ١٢٨٧/١٨٧٠-١٣٠٥/١٨٨٨) له رأي عملي في الدخول ببلده - زنجبار - إلى عصر النهضة.

عملنا يتكوّن من ثلاثة فصول تؤدي كلها إلى بلورة فكر السلطان:

الفصل الأول سعينا - فيه - إلى معالجة قضية إبطال تجارة الرقيق التي كانت مفتاح النهضة لأنها وليدة العصر. وهي بمثابة مرحلة أساسية في عتق الإنسان من قيود الرق التي تقتل فيه الإرادة كلها، والملكات جميعها. تحدثنا في هذا الفصل عن أثر معاهدة سنة ١٨٧٣ بين السلطان وبريطانيا وما نتج عنها في نظر الإنكليز، وما كشفت عنه من عوائق حدّت من الإسراع في تطبيقها. وأنهينا الفصل بتوضيح بعض الفوائد التي جناها العبيد/ الأحرار.

الفصل الثاني حاولنا - فيه - العمل على تشكيل صورة نموذج التقدم الذي أغرى السلطان. ورأينا أن هذه الصورة تتكون من عنصرين: الأول يتمثل في التقدم الصناعي

الكبير الذي شاهده في لندن، وهو مدني وعسكري. والثاني هو العمران الذي غايته خدمة الإنسان وتيسير حياته مثل الحديقة العامة، والمستشفى، ودار العجز.

الفصل الثالث اهتممنا - فيه - بإبراز حقيقة النهضة، كما رآها السلطان. وقد عدّدنا فيه العوامل التي دفعت به إلى ولوج هذه المعمعة. وهي عوامل متنوعة، منها ما هو ثقافي، وما هو نفسي، وما هو سياسي، وما هو اقتصادي. وكلها تعود إلى مقتضيات العصر. وأردفنا الحديث عن هذه العوامل بتوضيح الكيفية التي - بها - يرى السلطان تحقيق مشروعه، وهي تنحصر في عنصرين متكاملين هما: الإعلاء من شأن العمل وتحويله إلى قيمة، والاستعانة بخبرة الإنكليز.

لقد كانت محاولة النهضة في زنجبار - في الحقيقة - إرهاصة أخيرة قبل السقوط في شبكة الاستعمار.

❁❖❁❖❁

# *" Renaissance "*

## *from the Perspective of Sultan Barghash: Description of Tanzieh Al[Absar Journey*

*Dr. Ahmad Sasi Al - Shetaiwi*
*Faculty of Arts*
*Sultan Qaboos University*

## *Abstract*

Arab Renaissance, which has long been controversial, is the focus of this research project.

Sultan Barghash Bin Said (Circa 1287-1305 Hijra/AD 1870-1888) held practical views as he led his country, Zanzibar, into the Renaissance period.

This project consists of three chapters, outlining the development of the Sultan's ideas.

The first chapter deals with the abolition of the slave trade, an indispensable endeavor to liberate man from the manacles of slavery, which hindered his will and obliterated his faculties. This chapter also explores the effect of the 1873 treaty between the Sultan and Great Britain, and the consequences thereof, from the British perspective, and the obstacles which hindered its prompt application. Towards the end of the chapter, I point out the benefits that the freed slaves reaped.

The second chapter attempts to draw an exemplary impression of the progress which fascinated the Sultan In fact, this impression consists of two elements: the first lies in the significant industrial

progress the Sultan witnessed in London, both civilian and military. The second impression is architectural, and whose purpose was to serve human beings and life as a whole, such as the building of the park, hospital and elderly institution.

The third chapter focuses on the reality of the Renaissance, as perceived by the Sultan, and enumerates the factors prompting the Sultan to become involved in the Renaissance. These factors are varied, some of which are cultural, psychological, political and economic; and are all inspired by the values of the period. These elements are discussed with regard to the Sultan's approach tot he project and the ways it could be achieved. In this, he relied on two complementary elements; the elevation of work and its conversion into value and the relaince on British expertise.

The Renaissance attempt in Zanzibar was thus the last of its kind before colonialism took over.

تعتبر رحلات العرب إلى الغرب - في القرن ١٣/١٩- من أهم الوسائل التي عرّفتهم على مظاهر حضارة أوربا المتقدمة. وتمثّل أوصاف [١] هذه الرحلات مجالات طافحةً بالآراء المختلفة في كيفية تحقيق «النهضة» [٢] التي يسعى إليها العرب. إلا أن رحالة ذا شأن سياسي هو السلطان برغش [٣] له رأي يخالف ما اعتدنا عليه من آراء الإصلاحيين والنهضويين. وهو رأي أقرب إلى العملي منه إلى النظري، نقله عنه كاتبه زاهر بن سعيد [٤] الذي صاحبه في تلك الرحلة في وصفه الذي عنونه بـ «تنزيه الأبصار والأفكار، في رحلة سلطان زنجبار [٥]» [٦] وقد بقي هذا الوصف مغموراً [٧] رغم أن الرحلة تمت سنة ١٨٧٥.

لقد توفر هذا النص على مادة كافية لوضع الملامح الدقيقة لتفكير هذا السطان في مسألة «النهضة» التي شغلته لخطورة الموقف الذي كانت تمر به بلاده.

ورأي السلطان يفتح لنا زاوية أخرى في هذه القضية تختلف عن زاوية الإصلاح العسكري [٨] أو زاوية الإصلاح السياسي [٩] أو زاوية الإصلاح الفكري [١٠]. لقد تميّز موقفه بمواجهة المشكلة مباشرة. ولم يبق متردداً، بل ورّط نفسه في صُلبها وكان ديدنه في حلّها محاولة إصلاح الإنسان.

إن اطلاعنا على هذا الوصف الطريف - من مدة قصيرة - حفّزنا على كتابة هذا البحث لإماطة اللثام عن رأي لم ينتشر، ولإثراء المعرفة بجانب آخر من مسألة «النهضة» وقد رأينا اتباع منهجية تسمح لنا ببلورة العناصر المكونة لهذه المسألة. فبدأنا بفصل خصّصناه لإبطال تجارة الرقيق. وهذا مدخل من أهم مداخل «النهضة» باعتبار أن الإنسان هو الغاية من هذه الحركة المعاصرة إلى جانب كونه أداة تحقيق هذه الحركة. ثم انتقلنا - في فصل ثانٍ - إلى العمل على تشكيل النموذج الحضاري الذي أغرى السلطان، وهو نموذج ركزّنا فيه على إبراز الجانب الإنساني وأهملنا الجانب العلمي أو الصناعي أو التقني.

وأنهينا البحث - في فصل ثالث - بتلمّس العوامل التي يمكن أن تُحدث «النهضة» كما شكّلها السلطان في الواقع الذي بدأ يصنعه.

ووجدنا مشكلة اعترضت سبيل البحث وهي: هل ننقل أفكار السلطان وأقواله بالمعنى أو بالحرف؟ واخترنا أن يكون الأسلوب الثاني لأنه أوفق وإن كان قد يؤدي إلى تزاحم الشواهد خصوصاً وأن لغة النص لغة القرن ١٩/١٣. ولنا حجّة تؤيد ما ذهبنا إليه وهي أن الأقوال التي سننقلها هي أقوال رجل سياسة. ومجال السياسة يقتضي الشواهد الصريحة والأدلة الصحيحة تلافياً لكل تأويل، ودفعاً لكل تحريف. وحرصنا على تلك الشواهد حتى أننا سقناها على علاتها. على أننا عمدنا إلى توضيح ما يقتضيه البحث العلمي من مصطلحات وتعريف بالأعلام. واجتهدنا - قدر الإمكان - في تدقيق بعض النواحي التاريخية.

## تحريـــر الإنســـان

عرفت الحضارات القديمة تجارة الرقيق [١١] واستمرت هذه التجارة متوفّرة إلى القرن ١٨/١٢ حيث ظهرت أفكار فلسفية في أوربا تنادي بضرورة إلغاء هذه التجارة لأنها لا تليق بالإنسان. ولم تتحول هذه الأفكار إلى الواقع العملي إلا سنة ١٨٢٣م في بريطانيا. ثم إن الدولة البريطانية اتخذت قراراً جريئاً آخر وهو إلغاء هذه التجارة في سائر الدول التابعة لها سنة ١٨٣٣ [١٢]. ولا ندخل في مناقشة قضية الغايات الخفيّة في الوصول إلى هذا القرار، إنما يعنينا كيف حاولت أن تحقق هذا الهدف في زنجبار [١٣] بمعنى آخر نريد أن نتعرف على مدى استفادة السلطان برغش من تحرير العبيد.

إن بريطانيا قدمت مسألة تحرير العبيد للدول الأخرى على أنها حركة إنسانية تدخل في صميم نهضة الإنسان، فلا يمكن أن تحقق هذه الشعوب نهضتها والإنسان فيها يرزح في الأغلال، مفقود الإرادة. وكانت زنجبار من أهم الدول «الصديقة» التي تُزوّد سوق الرقيق باعتبارها مركزاً من مراكز تجميع العبيد [١٤] فعمدت بريطانيا إلى التعامل معها على مراحل:

**المرحلة الأولى :** التضييق على تجارة الرقيق. قد أبرمت مع السيد [١٥] سعيد بن سلطان [١٦] سنة ١٨٢٢ اتفاقية «مضمونها تحديد الدوائر التي يرخّص فيها للسفن التي تحمل علم السيد سعيد أن تمر فيها وهي شاحنة للرقيق بدون أن تتعرض السفن الإنجليزية لأسرها» [١٧].

**المرحلة الثانية :** إبرام معاهدة مع السيد سعيد سنة ١٨٤٥ «مضمونها منع استيراد الرقيق إلى داخل أملاك السيد سعيد في إفريقية[١٨] الشرقية. ومنع جلبهم من إفريقية لعُمان» [١٩].

**المرحلة الثالثة :** إبرام معاهدة أخرى سنة ١٨٧٣ مع السلطان برغش «لأجل إبطال الرقيق من سواحل إفريقية ومن أملاك زنجبار قاطبة» [٢٠].

ويمكن القول إن هذه المعاهدة الأخيرة هي التي أتت أكلُها لأن السلطان برغش اجتهد في تنفيذها. فكيف قابل الإنكليز جهوده؟ وما موقف السلطان من العمل الذي أنجزه؟ وما منافع العبيد/ الأحرار ؟

## ١ - رد فعل الإنكليز :

لئن تعدّدت أسباب رحلة السلطان برغش إلى لندن [٢١] فإن مسألة الرقيق لم تغب عن ذهنه، بل إننا وجدناه يعالج هذه المسألة في لقاءاته أغلبها حتى أن الصحيفة البريطانية «الديلي تلغراف» [٢٢] قد أوفدت صحفياً إلى مقر السلطان ليجري معه مقابلة. وأهم موضوع تركز عليه الحوار هو مسألة الرقيق ولم يرَ هذا الصحفي بُداً من الثناء على السلطان، فقال له «إنّ ما قدّمَتْهُ الأمة والدولة البريطانية في حق سعادتك من الإكرام والعزّ هو بعض من واجباتها وفروضها مما هي مدينة به لسعادتك لأجل جهادك معها في إبطال تجارة الرقيق في إفريقية. وإنّ جرائد لندن كلها قد حثت الدولة والأمة على تقديم الإكرام الواجب لسعادة أمير جليل وسيّد نبيل» [٢٣].

وموقف هذا الصحفي يعكس وجهة نظر الرأي العام. فقد أجمع المواطنون والمسؤولون على الاعتراف بفضل السلطان في إبطال تلك التجارة لما فيها من إهدار لكرامة الإنسان.

وكان المسؤولون لا يتردّدون في الإشادة بشجاعته وتحمّله تبعات تنفيذ المعاهدة. فهذا حاكم لندن [٢٤] ينبري في إطرائه قائلاً : أنت قد تفرّدت بحب الإنسانية وفتحت أبواب الحرية في وجوه قوم طالما نُكبوا بمصائب الرق والعبودية. وأنت أوّل سلطان عربي عقد معاهدة على إبطال تجارة الرقيق، وأنت أوّل من سطّر اسمه الشريف في صُحف تاريخ الحرية الإفريقية، وأنت أحق من سواك بنوال شرف حرية لندن القديمة وامتيازاتها المنيفة[٢٥] » [٢٦].

ولئن تجاوز الحاكم الحدود في تقرير الحقيقة إذ أنّ أوّل معاهدة في هذا المجال تمت - كما ذكرنا - مع السلطان سعيد سنة ١٨٢٢ فإن الحاكم أراد إبراز حيوية السلطان برغش في تنفيذ معاهدة ١٨٧٣.

ولم يبتعد والي منشستر [٢٧] عن إظهار ما تميّز به السلطان من إنسانية راقية، فلولا « سلامة قلبه الشفوق الرؤوف » ولولا حبّه للإنسان و « تحرير عباد الله من الرق والاعتناء في تهذيبهم وإصلاح شؤونهم » [٢٨] لما تحمّل أعباء تنفيذ المعاهدة. قد يكون السلطان محباً للخير فعلاً فالجهد الذي بذله يشي بذلك.

ولقد ذهب إعجاب والي ليفربول [٢٩] بجرأة السلطان على إبطال الرق إلى اعتباره شخصية عالمية فقال « قد حُقّ على أهل العالم المتمدّن أن يرفعوا مقام هذا السلطان النبيل ويشكروه على ما خوّل البشرية من الحرية والفلاح وعلى اتفاقه مع دولة بريطانيا على إبطال تجارة الرقيق في إفريقية » [٣٠].

هذه المواقف التي عكست الإعجاب بشجاعة السلطان لا تعكس حالة الرضا المطلق. فلئن اعترف المسؤولون الإنكليز بسعي السلطان الجاد لإنهاء مسألة تجارة الرقيق فإنّهم لم يُخفوا بعض المآخذ التي شابت هذا العمل. وهؤلاء المسؤولون يعلمون أن حَسم هذه المسألة المعقّدة تتجاوز إمكانيات السلطان ويعلمون أنه - أي الحسم - يحتاج إلى إمكانيات ووقت. ولكنهم تجاهلوا ذلك، أو هكذا تظاهروا بقصد المزيد من الضغط على السلطان وتحميله مسؤولية الفشل إن حدث ذلك. وبناءً على ألاعيب السياسة ومناوراتها ألفينا رئيس مجلس التجارة [٣١] في منشستر لا يخفي نقده للسلطان فيوجّه إليه الخطاب قائلاً:

قد صرنا في غاية الامتنان لسعادتك لأجل ما وعدت به أمتنا البريطانية، ولاشك أنك تفي بوعدك الصادق وتُبطل تجارة الرقيق تماماً» (٣٢).

ولئن كان رئيس مجلس التجارة قد مهد لنقده بشيء من الثناء لترويض نفس السلطان فإن الناطق باسم «جمعية إبطال تجارة الرقيق في إفريقية» (٣٣) لم يدّخر جهده في اتهام السلطان بالتقصير في الوفاء بالتزاماته التي أمضاها فقال له «أما السياح الذين طافوا في بلاد إفريقية فقد نقلوا إلى جمعيتنا أخباراً يعز علينا أن نسرد ذكرها على مسامع سعادتك. فقد قالوا: إن أكثر النخّاسين يجتمعون إلى زنجبار، ويجهزون سفنهم في أسواقها، ويسافرون منها بحراً في طلب الرقيق، ومتى نالوا ما تمنوا من صيد أولئك الزنوج منكودي الحظ رجعوا إلى زنجبار ونفقت تجارتهم في أسواقها. فلا يخامرنا ريب في أن هذا لا يسر سعادتك ولا تطيب نفسك الكريمة بهذه الأرباح الذميمة وإنك لتفرغنّ جهدك في إبطال هذه المنكرات القبيحة التي [ ليس ] (٣٤) فيها خير للأمة والملك» (٣٥).

وإذا كان السلطان بين مادح له ومجحف في حقه، فوجد الإطراء - عند بعض المسؤولين - بأن العمل الذي قام به لم يُسبق إليه، كما وجد القدح عند المسؤولين الآخرين لأنه لم يحقق ما تريده منه المعاهدة فإننا ألفينا موقفاً وسيطاً يمثله السير (٣٦) برتل فراير (٣٧). فقد اعترف هذا المسؤول بواقع تعقّد المسألة وصرّح بأن إلغاء تجارة الرق يحتاج إلى وقت وأموال قد لا يكون للسلطان قبل بها وقدرة عليها حتى ولو حسُنت نيّته ورقَ قلبه والتزم بتنفيذ المعاهدة. ولهذا عقد هذا المسؤول مقارنة بين الجهد الذي بذلته الدولة البريطانية (٣٨) وما يسعى السلطان إلى تحقيقه في زنجبار فقال: «إذا قابلنا حالة زنجبار مع حالة بلاد الإنكليز رأينا أن سعادة السيد برغش - أيده الله - قد فاق الإنكليز في مساعيه الحسنة من جهة عتق الرقيق. فإن الدولة البريطانية صرفت سنين عديدة ودراهم وافرة قبل أن تمكّنت من عتق الرقيق الذين كانوا في مستعمراتها ولم تنجح مساعيها وتفوز بوطرها إلا منذ بضع سنين فقط. والشيوخ الذين مازالوا أحياء منذ ذلك العهد إلى يومنا هذا يشهدون لنا بما عانته الدولة البريطانية من التعب والمصاعب في تحرير الرقيق في البلاد التابعة لها.

أمّا السيد برغش - أيّده الله - فقد نجح في إلغاء تجارة الرقيق وعتقهم في بلاده في برهة قصيرة من الزمان وإن قاسى مشقّات عظيمة. ومع هذه كله لم يكن تحت أمر سعادته أموال وافرة وذهب وضّاح مثلما كان تحت أمر الدولة البريطانية. فلا عجب إذا كان لسعادة السيد برغش فضل عظيم في هذا الأمر أكثر من الدولة البريطانية القوية بالمال والرجال»[٣٩].

والحقيقة أن هذا الكلام فيه شيء كثير من الصدق والموضوعية فالمعاهدة التي شرع في تنفيذها السلطان لم يمرّ عليها أكثر من عامين عندما سافر إلى لندن والتقى بهؤلاء المسؤولين القادحين. والحقيقة الأخرى هي أن السلطان قد واجه مشاكل معقّدة على ساحة الواقع. فما تلك المشاكل؟ وما موقف السلطان منها ؟

## ٢ - موقف السلطان :

لم يكن السلطان برغش متردداً في تنفيذ الاتفاقية رغم علمه بالخطورة التي تنطوي عليها. وسعيه إلى تنفيذها كان نابعاً من اقتناع مردّه إلى ثلاثة عوامل:

**العامل الأول** وعيه بأن إبطال تجارة الرقيق هي المدخل إلى النهضة بزنجبار. فثقافته جعلته يدرك أن الحرية باب واسع من أبواب بناء الإنسان الذي هو أداة النهضة. فلقد وجدناه يعبّر عن هذا الموقف عندما «رأى الإنكليز يتردّدون على الحدائق والجنائن وهم في حبور وسرور «فنظر إلى صحبه وقال «انظروا إلى هذا الشعب السعيد وإلى ما هم عليه من الحرية والغبطة. انظروا إلى أولادهم وبناتهم كيف يمرحون وهم آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يجزعون» [٤٠] هكذا أدرك السلطان بعينه أن العبودية لا يمكن أن تصنع الحياة ولا يمكن أن تؤدي إلى النهضة لأن النهضة إرادة، والإرادة لا يملكها العبد.

**العامل الثاني** اعتباره العمل على إبطال الرق قُربة من القربات إلى الله. فهو القائل «إنّ ما فعلناه إلى الآن وما سوف نفعله في المستقبل - بعونه تعالى - فهو لوجه الله الكريم. وعسى أن يكون ذلك حسنة عند الله - جلّ جلاله وعمّ نواله - وهو حسبنا ونِعْم الوكيل»[٤١].

**العامل الثالث** تقديره أنّ تنفيذ المعاهدة إنما هو دليل مودة وصداقة بينه وبين الدولة البريطانية. فهو لم يفتأ - في كل مناسبة أثيرت فيها مسألة تجارة الرقيق - يُعبِّر عن هذا الشعور ويلحّ على إظهاره. وهذا قوله : «ما عدتُ اشتهي على الله شيئاً سوى أن يديم لي وداد الدولة البريطانية ما حييتُ، وأن يوطّد دعائم هذه الصلات الحبيبة على أسس الخلوص والاستقامة»[٤٢].

هذه العوامل تدل - إذن - على أن السلطان لم يكن يرفض إلغاء تجارة الرقيق أو يراوغ في تنفيذ المعاهدة، لأن العصر يقتضيها، والظروف الدولية تحتّمها، ووضع زنجبار التي يجب أن تنهض يدعو إليها. إلا أنه ليس كل ما تقتضيه الظروف قابلاً للتنفيذ. فلقد واجه السلطان صعوبات، وعوائق، عليه أن يتعامل معها بمرونة، ويواجهها بحنكة. من هذه الصعوبات نذكر :

(أ) اعتراض بعض أعوان السلطان الذين لهم مصالح خاصة تتعارض مع إبطال هذه التجارة من ناحية وتحرير الرقّ من ناحية أخرى. وقد عمد هؤلاء إلى إضفاء المصلحة العامة على مصالحهم وأظهروا أن إبطال هذه التجارة يؤدي إلى أضرار اقتصادية خطرة، وانحرافات اجتماعية قد تقضي على البلاد. وزعيم هؤلاء هو «الشيخ حمد بن سليمان [٤٣] كبير وزراء السيد برغش وأعظم مشيريه». فقد أعلن هذا الشيخ صراحة رفضه للمعاهدة وعدّ الاقتراحات التي فيها «علة خراب المملكة وسبب خسارة عظمى له ولجميع أغنياء بلاده لأنه صاحب أراض واسعة وعقارات وافرة، وكان مستولياً على عدد غفير من الرقيق يحرثون أراضيه ويزرعونها ويجمعون غلالها»[٤٤].

(ب) رفض «رئيس النخّاسين المدعو ميرابو» التخلي عن تجارة الرقيق. وكل تجارة لها حُماتها ومحتكروها والمدافعون عنها والمستفيدون منها. فهذا الرئيس «كان يحاول منع إبطال تجارة الرقيق في إفريقية» [٤٥] وقد ضيّق السلطان برغش على هذا «الرئيس» واعترض سبيله حتى «انكسرت شوكته (...) بهمّة ملك أوكندا[٤٦] وقد أرسل سفيراً إلى زنجبار يطلب العفو عمّا فرط منه في الماضي، ويَعِد بصَرف همته إلى إبطال تجارة الرقيق ما استطاع»[٤٧].

(جـ) طبيعة العبيد: إذا كان السلطان قد استطاع التغلب على الصعوبتين السابقتين بعد عناء فإنه واجه صعوبة كأداء تتمثل في طبيعة الرقيق أنفسهم. فقد أَلِفوا الاستبعاد واستمرؤوه، وصار لهم هذا الإلف جبلّة يرفضون مفارقتها والإنسان ابن عوائده [٤٨]. والحقيقة أن طبيعة الرق طبيعة معقدة في ذاتها. فالعبد قد فَقَدَ منبته، وجهل أصله، وضاعت هويته، خصوصاً إذا اختُطف صغيراً، أو بيع غضّاً [٤٩]. ثم إن هؤلاء العبيد ألفوا الأعمال الفلاحية في حقول القرنفل [٥٠] والنارجيل [٥١] فكانوا هم أنفسهم يخافون من تحريرهم لأن ذلك قد يكون سبباً في ركود «همّتهم عن الكدّ والحركة» [٥٢]. وكان السلطان برغش واعياً بتعقد المشكلة فلخصّها في قوله: «عرّضتُ نفسي لأخطار مهولة بإدخال الإصلاح الأوروبي في قوم لم يعتادوا عليه. وهذا يجري في كل أمّة سواء كانت متمدنة تمام التمدّن أو غير متمدّنة. فإن تغيير عوائد القوم من أصعب الأمور التي يجريها رجال الإصلاح. ولابد لكل مصلح من أن يتذرّع بالجرأة ويقتحم الأخطار. ومن لم يقتحم الأهوال لا ينل الآمال» [٥٣].

(د) واقع تجارة الرقيق: هذه التجارة في نظر السلطان - ليست تجارة طارئة أو حادثة في زمن قصير، أو خاصة بشعب دون شعب، وإنما هي «تجارة أنشأتها الأجيال» [٥٤] وشاركت فيها سائر الدول. وليست متعلقة بالسلطان برغش وحده. ولهذا وجدناه يردّ بعنف على مَنْ لامه في تجارة شبيهة بتجارة الرقيق - وهي تجارة العاج التي تتسبب في قتل الأفيال - فقال: «إنْ اعترض [ أحد] علينا وقال: إنّ الإبقاء على الأفيال خير من التجارة بأسنانها وعظامها، قلنا له: حَرِّمْ أولاً على أُمتك اتخاذ العاج سبيلاً للتجارة، فتكسد سوقه ويكفّ الأفارقة عن قنص الأفيال وقتلها» [٥٥].

(هـ) جغرافية البلاد الإفريقية: قارة إفريقيا واسعة، وذات تضاريس متشعّبة، وأدغال مجهولة، وقبائل منتشرة، ومسالك غير مأمونة. والحركة في أراضيها حُكر على النخّاسين الأقوياء. فاستئصال شأفة هؤلاء أمر دونه خرط القتاد. ولهذا وجدنا القس جرجس باجر [٥٦] ينبري موضحاً للمشكلة في قوله: «ليس بخاف عليكم ما لسعادته من البلاد الواسعة مساحة والشاسعة مسافة، وأملاكه في أصل البرّ تبعد عن سواحل

البحر والبنادر[٥٧] ويصعب على رجاله السّعي في إثر النخّاسين وجَلابة [٥٨] الرقيق في تلك القفار عسيرة المفاوز»[٥٩].

هذه الصعوبات لم تمنع السلطان من السعي الدؤوب في القضاء على تجارة الرقيق. فقد كان مخلصاً للأسباب التي ذكرنا، والدليل على أنه كان جَلْداً فعلاً، ومُصراً حقاً على تضحيته بمصالح اقتصادية واجتماعية عاجلة. إلا أنّ هذا لم يمنعه من الوقوف في وجه المسؤولين الإنكليز الذين اكتفوا بالإشادة - في أغلبهم - بجرأة السلطان وأكثروا من الإطراء، وهو يعلم أن الإطراء لا يصنع الدول، ولا يحمي الشعوب، ولا يضمن النهضة والتقدّم. فقد كان يرى أن من واجبه الرد على هذه الإطراءات بما يقابلها من النقد والتصحيح وبما ينفع بلاده. ذلك أن هؤلاء المسؤولين قد تجاهلوا الحديث عن المتاعب التي ألّمت به نتيجة تنفيذ المعاهدة. وهذا ما فعله مع والي ليفربول الذي أطراه فما كان منه إلا أن قال له: «أمّا ما أشرتم إليه من جري إبطال تجارة الرقيق في بلادنا فقد تجشّمنا أتعاباً عظيمة وخسائر باهظة وصرنا عرضة لأخطار مبرحة» [٦٠].

هذا التصريح أمام هذا المسؤول الكبير يعكس عدم الرضا عن سياسة بريطانيا إزاءه بل يشي بالشعور بالغبن واللامبالاة إذ لم يقاسمه الإنكليز معاناته في أمر قد فرضوه عليه، والحال أنه كان يتوقع البحث في المشاكل الناجمة عن إبطال هذه التجارة. وما كانت رحلته الخطرة إلا لهذا السبب الأهمّ.

ويبدو أنّ الحكومة البريطانية قد ماطلته أو أنّها تأخرت في الإسراع إلى مساعدته. وكان هو مستعداً ليفضح هذا السلوك، ويُعلن للملأ «أنّه خسر نحو ١٠٠٠٠ ليرة سنوياً من جراّء إبطال تجارة الرقيق في بلاده» [٦١] وإذا لم تعوّض له الدولة البريطانية هذه الخسائر أو بعضها فإن ذلك من باب الإهانة [٦٢] وحتى يُعلم الجمهور البريطاني بهذا الوضع وجدناه يُعلن لمبعوث «الدايلي تلغراف» [٦٣] قوله: «الأقوال ليست كالأفعال، ومجرد الكلام لا يقوم بأعباء الأمور المهمة. فأنتم - يا معشر الإنكليز - تكتفون بالثناء عليّ لأجل ما قاسيته من الأخطار وخسرته من الأموال بسبب إبطال تجارة الرقيق، وأنا أعاني المشقّات وأقتحم الأخطار وأخسر الأموال» [٦٤].

وألفيناه مرة أخرى ينتبه إلى فخّ المغالطة الذي دأب عليه المسؤولون الإنكليز بالثناء عليه، فلم ينطل عليه وصفه بأنه «أول سلطان عربي عقد معاهدة على إبطال تجارة الرقيق»(٦٥) فردّ على صاحب هذا الكلام - وهو حاكم لندن - بالقول : «ما أتمنّاه (...) هو أنّكم لا تقفون عند هذا الحد وتقتصرون على إظهار المعروف بالكلام الداوي فقط، بل أن تقرنوا القول بالعمل، وتفتحوا ليس أفواهكم فقط بل خزائن أموالكم وتبذلوها في تحرير الرقيق بإفريقية كما بذل جدودكم خزائن أموالهم في تحرير الرقيق ببلادكم. وأنتم تعلمون علم اليقين أنّ من قال وفعل كان نِعْم الرجل»(٦٦).

## ٣ - عناية الإنكليز بالرقيق / الأحرار :

إنّ إبطال تجارة الرقيق - في أوربا - كانت قضية إنسانية في القرن ١٣/١٩. وكانت الدول الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا تعتبرها مسألة جوهرية تدخل ضمن تحرير الإنسان الإفريقي وإدخاله التاريخ المعاصر وتمكينه من المشاركة في حضارتها. ذلك هو مدخل بريطانيا إلى إبطال هذه التجارة. ولا يتسنى تحقيق هذه الغاية «النبيلة» إلا بتوفّر مؤسسات أو لنقل جمعيات تختص بالعمل على إخراج الإرادة إلى حيّز الواقع. ولهذا وجدنا الإنكليز يكوّنون ثلاث جمعيات وهي «الجمعية الجغرافية الملوكية» (٦٧) و«جمعية المرسلين(٦٨) » (٦٩) و«جمعية إبطال تجارة الرقيق» (٧٠). وكان من أهداف هذه الجمعيات مساعدة الدولة البريطانية على تنفيذ مشروعها بإقناع من لهم سلطة على تجارة الرقيق أو لهم مصالح فيها كما كانت تعمل على تحسين حال العبيد/الأحرار.

وقد قامت هذه الجمعيات - فعلاً - بعدّة نشاطات، وأثمرت جهودها بعض النتائج. ولم تكن هذه الجمعيات لتحقّق هذه النتائج لولا أنها كانت تعمل بمساعدة الدولة البريطانية وحكّام الدول الإفريقية ومنهم السلطان برغش. لقد كان هذا السلطان على علم بنشاط هذه الجمعيات بل كانت تطلب منه العون وكان هو لا يتردد في مساعدتها وتسهيل حركتها في زنجبار وفي الأراضي الإفريقية. ونذكر فيما يلي بعض إنجازاتها:

**(أ) اكتشاف إفريقيا:** هذا النشاط يدخل ضمن تحديد الجغرافيا البشرية لهذه القارة المجهولة ومعرفة المسالك التي تساعد على الوصول إلى التجمعات البشرية من قبائل وقرى هي مصدر الرقيق. وقد ذكر كاتم سرّ «جمعية المرسلين» أمام حضرة السلطان برغش أن «الدكتور أكراب[٧١] قد نبغ في سياحته في قارة إفريقية واكتشف فيها أموراً مهمة في فن الجغرافيا»[٧٢] ولم يكن هذا النشاط خاصاً بهذه الجمعية بل إنه في نشاط «الجمعية الجغرافية» أدخل. والحقيقة أنه يوجد تنسيق وتعاون بين الجمعيات المعنية بالرقيق. وكانت هذه الجمعيات تعمل جميعاً على اكتشاف إفريقيا والتعرّف على أدغالها وأنهارها وبحيراتها وفيافيها وأحراشها وصحاريها. لقد تراجعت فكرة الخوف من إفريقيا الداخلية[٧٣] وصار علماء الجمعية الجغرافية، وغيرهم، لا يتردّدون في التوغل داخل تلك القارة.

وقد عقدت هذه الجمعية محفلاً احتفاءً بالسلطان[٧٤] وأعلنت أنه فيها عضو شرفي[٧٥]. وقد أشاد أحد أعضائها بفضل هذا السلطان عليها وانفتاحه على نشاطها وتشجيعه لأعضائها إذ أنّه «أبدى غاية العناية بمساعدة جميع السيّاح الذين أرسلتهم هذه الجمعية للسياحة في إفريقية واكتشاف خبايا تلك القارة الواسعة»[٧٦]، وأن مساعدته لم تكن بالتشجيع والكلمة الطيبة وإنما كان عملياً فلولاً ذلك «لما تمكّنت هذه الجمعية الجغرافية من إرسال مُدَد ونَجدة ومؤونة إلى رجالها السائحين في داخل قارة إفريقية»[٧٧].

وكانت «جمعية المرسلين» تستفيد من المعلومات الجغرافية في القيام بنشاطها ولا غرو - حينئذ - أن قدّم رئيس هذه الجمعية «إلى سعادة السلطان كتاباً مموّهة حواشيه بمحلول الذهب يحتوي على خرائط رسم الأرض»[٧٨].

**(ب) دراسة اللغات الإفريقية :** كان «المرسلون» يتوغلون في صلب حياة السكان الأفارقة والتّعرف على عاداتهم وتقاليدهم وأنشطتهم وأنماط معاشهم، وكانوا يداخلونهم في حياتهم الخاصة ويحفظون لغاتهم ويُكلّمونهم. وقد أدّى الأمر بهؤلاء المرسلين إلى دراسة تلك اللغات وتدوينها حتى أنّ أحدهم و«اسمه ريمان[٧٩] قد برع في اتقان لغة الزنوج حتى صار كواحد منهم في لهجة اللسان وأوسعهم علماً في جوامع الكلام»[٨٠].

وليس غريباً أن تتحقق مثل هذه النتائج. فقد تعامل الإنكليز مع الزنوج تعاملاً فيه جانب كبير من الإنسانية إذ أرادوا أن يتعرفوا عليهم ويستفيدوا منهم. وهذه العناية واضحة في دراسة أوضاعهم دراسة علمية، وليس غريباً أيضاً أن تؤتي هذه الجهود أُكُلَها فيهدي «عمدة المرسلين (السلطان) كتاباً نفيساً يحتوي على أخصّ لغات الزنوج الخاضعين لملك سعادته»[٨١]. ولا يجوز أن ننظر - دائماً - نظرة الرِّيبة إلى هؤلاء الغربيين الذين تحملوا المخاطر وبذلوا الجهود[٨٢] في خدمة الزنوج عموماً والعبيد خصوصاً.

**(جـ) تعليم الزنوج :** إن العرب الذين وصلوا إلى إفريقيا الشرقية لم يهتموا بتعليم الزنوج رعاياهم وعبيدهم. كيف تشغلهم هذه المهمة النبيلة وهم - أنفسهم - يعمّهم الجهل ويحركهم الطمع ويأسرهم الربح[٨٣]. أما «جمعية المرسلين» فقد كان نشر التعليم إحدى غاياتها في القارة الإفريقية. وقد كشف عن هذا النشاط كاتم سرّها فقال في حضرة السلطان : «قد أنشأت جماعة المرسلين مدارس ومنازل لتهذيب الزنوج في سواحل إفريقية الشرقية منذ أربعين سنة. وأكبر مراكزها في جزيرة ممباسا[٨٤] على مسافة مائة ميل من جزيرة زنجبار. ولها مركز آخر في أصل البر على مسافة نحو ٣٠ ميلاً من الساحل»[٨٥].

وكانت هذه الجمعية مدركة للخطر من جانب العرب ومتوجسة منهم خيفة فكانت تتوخّى الحذر ولا تلامسهم ولا تهتم بتعليمهم ولهذا «اقتصر هؤلاء المرسلون على تعليم الزنوج وتهذيبهم ولم يتعرّضوا إلى العرب والمسلمين»[٨٦].

**(د) التدريب على الحِرَف :** لم تكتف «جمعية المرسلين» بالتعليم النظري الذي يهذّب النفس ويُعلّم الآداب ويربّي الأخلاق ويوعّي الفكر، والزنوج كانوا في حاجة ماسة لمثل هذه المعاني والقيم، وإنما اعتنت أيضاً بعيشهم. وكان اهتمامها أكبر بالرقيق/ الأحرار. ذلك أن هؤلاء كانوا لا يُتقنون إلا الأعمال الحقلية التي أَلِفُوها وتعوّدوا عليها. فتحريرهم وفك رقابهم من العبودية لا يكفيهم، بل لا يتيح لهم فرصة الاندماج في الحياة العامة بل لا يوفّر لهم القوت[٨٧]. وللتخفيف من هذا الواقع المأساوي عهدت الجمعية إلى تعليمهم بعض المهن التي تحميهم من الجوع الذي يتهددهم. وهذا ما فعله أحد المرسلين فقد ذهب «إلى ممباسا لينشئ محلاً يأوي إليه الرقيق المعتوقون وقد أخذ معه سبعة رجال ليساعدوه

في هذا العمل المبرور. وقد عولوا على تعليم أولئك الرقيق المعتوقين صناعة الحراثة والزراعة. وباقي الصنائع اللازمة لقيام المعيشة ونجاح التمّدن »[٨٨].

هذا الجهد الذي كانت الجمعية تبذله لم يكن خافياً - كما قلنا - عن الدولة البريطانية. فقد كان التعاون بينهما وثيقاً. وكانت الدولة تمد الجمعية بالمساعدات رغم أنها خيرية. وهذا يعطينا فكرة عن واقع النهضة التي حققتها بريطانيا في القرن ١٩/١٣. فهي دولة مؤسسات تتعاون فيما بينها ولا تتناقض. ولا عجب حينئذ أن «ذكر سار بارتل فرير في مخابراته مع الدولة البريطانية المحفوظة في كتاب الدولة الأزرق [٨٩] (...) سعي هؤلاء المرسلين في تهذيب الرقيق المعتوقين وتعليمهم واجبات الإنسانية في ظلّ ظليل سعادة السيد برغش سلطان زنجبار وما يليها »[٩٠].

ويبدو أن الجمعية كانت تستشير الملكة وتسترشدها وتنسق معها العمل. وليس غريباً أن يتم ذلك بين جمعية في حاجة إلى السند والمد وملكة أدهشت السلطان برغش بشخصيتها وحضورها السياسي والإنساني [٩١]. وواضح أن هذه الملكة كانت توجّه الجمعية إلى أفضل الأعمال فكان أن «وعدت هذه الجمعية جلالة الملكة أن يعتني أولئك المرسلون بتهذيب جميع الرقيق الذين يسلّمون لعنايتها وأن يعلّموهم جميع الصنائع اللازمة»[٩٢].

نحن - إذن - أمام أعمال عظيمة قامت بها الجمعيات الثلاث، وهي جمعيات لم تتأخّر في استقبال السلطان برغش أحسن استقبال وفي اطلاعه على نشاطاتها وجهودها، وهي تروم الحصول على عونه ومساندته، وهي - أيضاً - تريد الكشف له عن أهمية تحرير العبيد وإبطال الاتجار بهم في النهضة التي يأمل تحقيقها. لقد أرادت هذه الجمعيات أن تُثبت له وللمتردّدين من أعوانه والخائفين أن الفوائد من تحرير العبيد أكبر من الاتجار بهم. وكانت أكثر هذه الجمعيات حرصاً على إشراك السلطان في عملها هي «جمعية المرسلين» فماذا كان موقف السلطان من نشاط هذه الجمعية؟

الحقيقة التي لاشك فيها أن السلطان لم ير غضاضة في نشاط أفراد هذه الجمعية أو غيرها من الجمعيات. ولهذا وجدناه يردّ على سؤال صحافي من «الديلي تلغراف» بقوله:

«قد بذلتُ وُسعي بطيبة الخاطر في مساعدة مستر استانلي [٩٣] وجميع الإنكليز الذين ساحوا في إفريقية، وأودّ لو أن يرجع مستر استانلي ماراً ببلادي حتى كنت أقوم بمساعدته حق المساعدة، ولكنه لا يرجع عن طريق بلادي. وأؤمّل أن يكون سعيه مقروناً بالنجاح» [٩٤].

وكان السلطان يساعد على تذليل الصعاب في طريق عمل «جمعية المرسلين» حتى فيما يهم اقتناء الأراضي لبناء المدارس أو المآوي العامة. وهذا ما حقّقه لهذه الجمعية من ممباسا ذلك أن حاكمها «تعرّض للمرسلين وأنكر عليهم قطعة من الأرض طولها نحو مسافة ميل كان يحتاج إليها المرسلون لإنشاء مدرسة» فما كان من السلطان إلا أن أرسل إليه «أن لا ينغّص على المرسلين ولا ينكر عليهم شيئاً مما يحتاجون إليه» [٩٥].

وقد بلغت رعاية السلطان لهذه الجمعية أن «أمر أن تُعفى - من المكوس والضرائب - جميع الأمتعة والبضائع التي سيجلبها المرسلون من أوربا إلى بلاده لحاجة المدارس ولوازم المرسلين» [٩٦].

وهكذا كانت مسألة الرقيق في القرن ١٣/١٩ من أهم المسائل المتصلة بالتقدم في أوربّا وبالنهضة في زنجبار. وكان السطان برغش قد عاشها بجميع أبعادها وتعقيداتها لأنها تُمثّل مرحلة تحوّل إنساني لا شبيه لها. ولم يكن السلطان - رغم اضطراره لإرضاء الدولة البريطانية، ورغم خوفه من الاضطرابات الاجتماعية، ورغم الضرر الاقتصادي الذي لحقه - رغم ذلك كلّه فإنه انتظم في هذه الحركة العالمية التي بدأتها أوربّا ثم انتقلت إلى مستعمراتها.

لقد اقتنع السلطان برغش - أو هكذا يبدو - بأن دخول عصر النهضة في بلاده لا يتحقق إلا بتحرير الإنسان .

## نموذج التقدم :

إن أوربا قد دخلت - في القرن ١٣/١٩ - عصر التقدم بلا منازع. فهي - فضلاً - عن الثورة التي حققتها في مجال حقوق الإنسان بإبطال تجارة الرقيق - فإنها عرفت ثورتين

أخرين أولاهما الثورة الصناعية. وهي ثورة ما كانت لتحدث لولا اكتشاف طاقة البخار [٩٧] ثم الكهرباء [٩٨] وبذلك انتقلت أوربا من الإنتاج العضلي إلى الإنتاج الصناعي الميكانيكي [٩٩]. أما ثانيتهما فهي الثورة العمرانية التي أدت إلى تحسين نوعية حياة الإنسان.

وإذا كانت أوربا قد تقدمت فإن السلطان برغش يريد أن ينهض ببلده. فالنهضة أولاً لأنها وعي بالتاريخ، ثم التقدم ثانياً لأنه دخول في التاريخ. وكانت هذه النهضة تحتاج إلى نموذج. وهذا النموذج رآه السلطان في أوربا «الغنية بكنوز المعارف والصنائع وأسباب الحضارة والعمران»، والتعرّف عليه - مباشرة - هي من أسباب سفره إليها «ليرى ما فيها يستحق نقله إلى بلاده» [١٠٠]. ولنقصر حديثنا - في هذا المجال - على مظهرين من مظاهر التقدم عبّر السلطان عن رأيه فيهما، وهما الصناعة، والعمران.

### ١ - الصناعة :

إن الصناعة لم تكن غريبة عن السلطان برغش. فقد وصلت آثارها إليه في زنجبار. وهو قد ركب باخرة [١٠١] للسفر إلى أوربا، إلا أنه - في لندن - سيشاهد بعض المصانع التي صنعت تلك الآلات العجيبة التي تعرّف عليها أثناء استعمالها. الآن سيرى كيف تحوّلت قطع الحديد والصلب إلى وسائل ينتفع بها الإنسان. ولقد رأينا الحديث في نوعين من الصناعة هما المدنية والعسكرية.

( أ ) **الصناعة المدنية** : هذه الصناعة يحتاج إليها الناس لتسهيل حياتهم وقضاء حاجاتهم والتخفيف عنهم من أعباء الكدّ وبذل الجهد، ومن الصناعات التي تعرّف عليها السلطان نذكر:

❖ **صناعة الاتصالات** : هذه الصناعة تعرّف عليها السلطان عندما زار البوسطة [١٠٢] وشاهد الموظفين منكبّين على العمل بالتلغراف [١٠٣] «فوقف (...) ينظر بسرور عظيم إلى ألف شاب منصبّين على إرسال الرسائل التغرافية إلى جميع بلاد الدنيا بسرعة البرق» [١٠٤].
وكان هذا المشهد كافياً لمعرفة موقف السلطان من هذه الخدمة العصرية التي ألغت المسافات

وسهّلت الأعمال وقوّت العلاقات إلا أنه « تعجّب كثيراً لما رأى واحداً من أولئك الشبّان قد أرسل رسالة برقية إلى عدن، واسترجع جوابها في برهة بضع دقائق يقول فيها مرسلها ما حرفيته: (الطقس في عدن صحو، والريح خامدة) »(١٠٥).

ولم يترك المسؤول المصاحب للسلطان فرصة البقاء تحت سيطرة الدهشة من هذه الغريبة من «الغرائب» (١٠٦) وأراد أن يقنعه بأن المسألة بسيطة ولا تتجاوز كونها آلة تقوم بخدمة، فطلب منه « أن يخاطب بالتلغراف واحداً من رجال دولته بعدن» وقام أحد الشبّان بإرسال الرسالة «فلم تمر دقائق قليلة إلا وأتاه الجواب من الوكيل المومأ إليه يقول فيه : (ماجدٌ عندنا خبر مهم نرفعه إلى سعادتك ...) فسُرّ السيد غاية السرور بذلك، وأثنى على مدير التلغراف وشكر له مكارمه» (١٠٧).

❖ **صناعة الأوراق المالية** : وقد شاهد هذه الصناعة في «بنك أف إنكلند» (١٠٨) كما شاهد سكّ النقود في «دار السكة» (١٠٩). وكان المشهد فاتناً، يرى السلطان بعينيه «طبع أوراق البنك». وقد يتبادر للذهن أن قيمة تلك الأوراق هي محلّ الفتنة والحقيقة أن الفتنة نشأت من طريقة العمل. لقد «سُرّ السيد غاية السرور بما رأى (...) من الأوائل (١١٠) التي كانت تطبع أوراق بنك بقيمة خمسة ليرات (باون) (١١١) وأوراق بقيمة عشرين روبية (١١٢) لحكومة الهند (١١٣) » (١١٤).

ولم يكن السلطان - كما قد يصنع الوهم - في دهشة ذهول، وإنما كان في دهشة علم. لقد حرك فيه مشهد الآلات العجيبة أسئلة حبّ الفهم، فَهمْ عمل هذه الآلات لأنها سر التقدم. فألفيناه «لفرط سروره بتلك الأوائل الغريبة التركيب (...) يستقصي في أحوالها، ويستفهم من مدير البنك عن تفاصيلها باعتناء شديد. فأخذ المدير يشرح لسعادته عن أحوال تلك الأوائل بتفصيل» (١١٥).

وقد شاهد السلطان أيضاً آلة «ضرب الشلينات (١١٦) ودراهم النحاس» وهي أيضاً آلة لها عبقريتها وسحرها فما كان منه إلا أن عبّر عن سروره «بطريقة شغلها وعملها غاية السرور» (١١٧).

ويصل الموقف أقصاه، والدهشة أقواها عندما يقف السلطان أمام «آلة صغيرة عجيبة التركيب تزن الليرات [١١٨] من تلقاء ذاتها وتفرّق الليرات الناقصة من الكاملة ثم ترمي بالناقصة إلى جهة والكاملة إلى جهة أخرى». وقد يبدو الأمر عادياً للوهلة الأولى فهي تقوم بالعمل مكانيكياً إلا أنه «من غرائب هذه الآلة أنها تقف بضع ثوانٍ عندما تزن الليرة لاتقان عيارها» هذه الوقفة السريعة هي التي أثارت انتباه السلطان أكثر ما أثارت فقال معبّراً عن غرابة الحركة «أرى هذه الآلة كأنها تفتكر عندما تزن الليرة لتتحقق ثقلها قبل طرحها إلى جهة من الجهتين» [١١٩].

لقد وشت هذه الملاحظات بفطنة السلطان. فقد أدرك حقيقة من حقائق التقدم، أدرك انتقال بريطانيا من عصر ذكاء الإنسان إلى عصر ذكاء الآلة. إنّ عصر الربوط [١٢٠] قد أشرف.

❖ **صناعة الأواني** : هذه الصناعة قديمة. إلا أن المعمل الذي زاره السلطان يتميز بميزتين: الأولى أنه مختص في صناعة الأواني الثمينة بأن تكون من الفضة أو الذهب أو أنها تكون مفضّضة أو مُذهَّبة. أما الميزة الثانية فهي تتمثل في نقوشها الدائمة. لقد رأى السلطان في هذا المعمل «ما يدهش العقل ويشد البصر» لأن الأواني كانت ذهبية وفضية ذات نقوش جميلة (وهي) شغل أساتذة ماهرين» [١٢١] والأغرب في هذه الأواني هو دوام نقوشها ذلك «أن الأواني الذهبية التي يصنعها الصُيّاغ [١٢٢] في الدنيا كلها إذا تعرّضت لرطوبة الهواء مدة من الزمن تغيّر لونها. أما هذه الأواني التي صاغها مستر إيلينكتن [١٢٣] فلا يضعف رونقها. ولا يتغير لونها ولو تعرّضت لرطوبة الهواء زماناً طويلاً: فإنه قد اخترع طريقة جديدة يُطلى بها الذهب تجعله لا يتأثر من رطوبة الهواء» [١٢٤].

ولم يدرك السلطان سر هذا النقش الدائم وهذا الطلي العجيب إلا عندما زار «محل طلي الأواني وتمويهها بواسطة الكهربائية» [١٢٥]. فالسر يكمن - إذن - في إخضاع هذا الطلي إلى الكهرباء. وهنا اكتشف السلطان وظيفة من وظائف هذه الطاقة لم تدُر بخلده، ذلك أنه يملك «آلة كهربائية يتسلّى بها [١٢٦] في امتحانات كهربائية» [١٢٧]. وما كان يعلم أن الكهرباء طاقة إنتاج صناعي لم يعرفه في زنجبار. ويبدو أن هذه الزيارة قد كشفت عن

جانب آخر من شخصية السلطان برغش وهو حُبه للاختراعات، إذ أننا وجدناه يسعى إلى تسجيل هذه المناسبة، مناسبة التعرّف على الكهرباء الصناعية، بطريقتين : الأولى عندما طُليت بعض القطع النقدية في «نفس الإناء الكهربائي» فإنه تناولها (...) مطلية بالذهب ودفعها لرجاله ليحافظوا عليها، على سبيل التذكار» (١٢٨) . والثانية عندما شاهد «الآلة الكهربائية» تحرق سلكاً من الحديد «في طرفة عين من شدة حرارة الكهرباء كما يحترق خيط كتّان من لهيب النار» أعلن أن ذلك مما يمثّل «ينبوع ثروة الإنكليز» (١٢٩) .

لقد أدرك السلطان سراً من أسرار تقدم الإنكليز.

**(ب) الصناعة العسكرية:** هذا جانب آخر من جوانب قوة بريطانيا وتقدمها. وكان المسؤولون الإنكليز قد أرادوا إطلاع السلطان على قوّتهم تلك مباشرة وعياناً بزيارة «معمل الأسلحة في ويليج (١٣٠) » (١٣١) . هناك رأى «آلات ضخمة تعجز عن تحريكها جبابرة نمرود (١٣٢) فتحركها قوة البخار العظيمة. وتصهر المعادن في بُوتقة (١٣٣) ضخمة تحاكي حوضاً من نار ثم تخرج من بطونها مدافع (١٣٤) عظيمة الحجم لا تتفرقع، ودواليب (١٣٥) متينة لا تتكسرّ، وأسلحة جهنّمية لا تُقهر» (١٣٦) . هذا هو المشهد العام لهذا المعمل. فإذا نظرنا في التفاصيل تمكّنا من معرفة موقف السلطان من هذه الصناعة، وتلك غايتنا.

◆ عندما شاهد مدفع الميتراليوز (١٣٧) «تعجب» . فإذا أخبروه أن أحد جنود الأعداء «لما رأى هذا المدفع وقت الحرب (...) يئس من القتال، وذبح نفسه مخافة أن يقع قتيلاً بإطلاق ذلك المدفع «تبادر إلى ذهنه فظاعة المشهد وحُرقة الألم، فقال «لا عجب في ذلك، فإنّ الموت البارد خير من الموت المحرق!» (١٣٨) .

◆ عندما رأى في هذا المعمل مخازن «المدافع والكُلل (١٣٩) والقنابر (١٤٠) والتوربيد (١٤١) وغيرها من الأسلحة المُهلكة» لم يتردد في التعبير عن امتعاضه وشعوره بقسوة الإنسان، فقال: «العياذ بالله من شرّها وشرّ الشيطان الرجيم!» ثم وجّه كلامه للإنكليز المصاحبين له: «لي ثقة بكم - يا معشر الإنكليز - أن لا تستخدموا هذه الآلات المُهلكة بحجّة الغزو والطمع في إهلاك الأبرياء، وإنّما تتخذونها لصيانة المُلك وحماية الضعيف ونجاة المظلوم» (١٤٢) .

◆ عندما شاهد مصهر المعادن لصناعة تلك الأسلحة. وقد «اندفعت حرارة شديدة من قلب الأتون خالها المتفرجون جبلاً من نار[١٤٣] قد انفجر وهاج»[١٤٤] ثم رأى «مطرقة عظيمة[١٤٥] تهوي على ذلك الجبل الناري من علو ١٢ قدماً[١٤٦] وصارت تطرقه طرقاً متواتراً بقوة تتزعزع لها الجبال «عندما أفزعه» ذلك المشهد المهول قال لحشمه: هلمّوا بنا إلى الصلاة، فقد انفتحت في وجوهنا أبواب جهنّم ونارها، والعياذ بالله منها!»[١٤٧].

هذه المشاهد ومواقف السلطان منها عكست مبدأ إنسانياً يرفض قتل الإنسان «بحجة الغزو والطمع» والتوسع. وهي حجج تُغلّف بغلاف إنساني مثل: المدنية والحضارة والتقدم. قد يتبادر لنا أن موقف السلطان هذا ضعيف ولا يرقى إلى المسؤولية السياسية؛ قد يكون ذلك خصوصاً إذا تذكّرنا أنه حاكم لدولة صغيرة إلا أن هذا الظن يزول عندما نجد السلطان يعترف بقيمة الأسلحة، ولكن لحماية الوطن فقط. ولم يفتأ يعبّر عن رأيه هذا في مناسبات عدّة.

الأولى عندما زار معمل الأسلحة الآنف الذكر وقد ذكرنا نصيحته ألا يستعمل الإنكليز تلك الأسلحة إلا «لصيانة الملك وحماية الضعيف ونجاة المظلوم».

الثانية عندما زار وليّ العهد[١٤٨] وشاهد أنجاله «مرتدين بملابس على زي ملابس البحرية» فإنه لم يتردّد في التعبير عن رأيه «إنّ مجد الدولة البريطانية وعزّها وفخرها قائم في حبّها للقوة الجندية البحرية حتى جعلت أنجال ملوكها يتوشحون بملابس البحريين»[١٤٩]. والقوة التي يشير إليها السلطان – هنا – تكمن في الإنسان وانضباطه وحبّه لوطنه الحب الحقّ، لا الحبّ الشبّعار.

الثالثة عندما زار «دوق[١٥٠] أف كمبرج[١٥١]»[١٥٢] فإنه لم يُخفِ إعجابه بذلك الدّوق «اللابس الملابس الرسمية في زيّ عسكر الجنود البريطانية لأنه كبير قواد العساكر». ويبدو أن السلطان أراد أن يوضح مبررات هذا الإعجاب لحشمه، فوجّه القول لكبير وزرائه: «ما رأيك في هذا الدوق؟» ولم ينتظر السيد الجواب، وأردف قوله: «عندي هو جندي بطل، وكل شعرة من شعره دليل على جبروته. ولكن لهذا الجندي البطل قلب حنون أيضاً. فإنّي

رأيته يودّ أهله مودّة قلبية، وسار بي من حُجرة الاستقبال إلى حجرة درسه [١٥٣]، وأراني هناك كتبه وتواليفه وصور أولاد أخته، وهو يجلّ الملكة غاية الإجلال. فإن كان قائد الجنود الإنكليزية هو هذا البطل فلا عجب أن تكون جنوده غير مقهورة. فعزّ الجنود قائدهم» [١٥٤].

فيتضح من خلال هذه المناسبات الثلاث قيمة الإنسان في نظر السلطان، فالجندي أهم من السلاح. والجندي يحب - في نظره - أن يكون إنساناً، له عقل يُفكّر به: وهذا واضح في قوله «كتبه وتواليفه» فهذا الجندي يجب أن يكون مثقّفاً بل مبدعاً، وله قلب يعطف به: وهذا واضح في قوله «صور أولاد أخته» فهذا الجندي يجب أن يكون مُحبّاً، وله طاعة لرئيسه، ولكن مَنْ رئيسه؟ [١٥٥].

وقد وجدنا في مناسبة أخرى أن السلطان يرتاح إلى الأسلحة التقليدية، أسلحة الفروسية، ولعل هذا الموقف يعكس مفهوم الحرب عنده فهي حرب المواجهة [١٥٦]. عبّر عن شعور الارتياح عندما شاهد في معمل الأسلحة «بقية حوانيت الصنائع والنجارة والحدادين والسرّاجين والخرّاطين وبقية الأدوات اللازمة لعمل العُدد والمهمات الحربية» وقد «سُرَّ السلطان عند مشاهدتها لشدّة حبّه الصنائع وعمل الآلات وقد أنشأ لنفسه معملاً لها في زنجبار» [١٥٧].

فالسلطان - إذن - يرفض الأسلحة التي تقتل «الأبرياء». ولكن من «البريء»؟، وما صفاته - الخ.

هكذا اتضح لنا أن السلطان كان مدركاً تمام الإدراك أهمية الصناعة في بناء الأمم، وفي ازدهارها، وفي تنمية ثروتها، بل إننا وجدناه واعياً بأساس هذه الصناعة ألا وهو الطاقة، ذلك أنه عندما كان في زيارة معمل الأسلحة ورأى كومة الفحم الحجري [١٥٨] لم يتأخر في أن قال: «هذا الماسكم الحقيقي، يا معشر الإنكليز، وهذا أصل غناكم ومصدر ثروة بلادكم، وقد أدركتم ذلك حق الإدارك، وتخلّلتم أحشاء الأرض وقاع البحار، وأخرجتم كنوزها فاغتنيتم» [١٥٩].

## ٢ - العمــــران :

كان السلطان برغش مهتماً بالتعرف على مظاهر التقدم العمراني في لندن. وكان حريصاً على زيارة معالمها[١٦٠]. وأكثر ما كان يشغله الجانب الإنساني في ذلك العمران، ونقصد به المؤسسات التي تُقدِّم خدمات إنسانية. لم تكن تعنيه العمارات ولا الطرقات ولا الحدائق بقدر ما كان يسرّه توفّر ما ينفع الإنسان فيها. ونحن نروم إبراز هذا الجانب من خلال بعض المواقف:

❖ **حديقة الحيوان**[١٦١] : عرفت لندن هذا المظهر العمراني [١٦٢] لينشأ سكانها على معرفة بالحيوان تسمح لهم بإدراك قيمته. وفد توفّرت في هذه الحديقة «نحو ١٥٠٠ حيوان من أجناس وأنواع مختلفة في أعظم الأفيال والحيّات والسباع والنمور والدّبّبَة إلى أصغر الحشرات. وقد بنوا لكل حيوان مكاناً على معزل عن غيره وأقاموا لها خُدّاماً يعتنون في تقديم القوت لها وتنظيفها والمحافظة عليها» [١٦٣] وإذا كان السلطان يعرف تلك الحيوانات أو بعضها فلا يثير ذلك إعجابه فإن العناية بها هو المثير، ولهذا «قد سُرّ (...) بمشاهدة هذه الحيوانات وحُسْن ترتيب مساكنها ونظافتها وحُسْن الاعتناء في القيام بمعاشها» [١٦٤].

❖ **المربى المائي**[١٦٥] : اهتم الإنكليز أيضاً بتربية السمك للفرجة وتربية أبنائهم على معرفة بهذه المخلوقات العجيبة. وهذا مظهر آخر من مظاهر التقدم أراد السلطان الاطلاع عليه. ولم يكتف «الطبايعي» [١٦٦] المشرف على هذه الدار بمرافقة السلطان وإنّما «صار يشرح له عن طبائع أنواع الأسماك المختلفة فرداً فرداً» وهذا المشهد مع ما صحبه من قبول حسن «سرَّ السيد برغش غاية السرور» [١٦٧].

❖ **المستشفى** : إذا كان التقدم الذي حقّقه الإنكليز قد شمل مرافق الحياة ووفّر مظاهر الفرجة والتسلية والراحة، واهتم بالحيوان والنبات والأسماك ... الخ، فكيف لا يرعى الإنسان، والإنسان هو محرك ذلك التقدم وغايته؟ لقد أدرك السلطان ذلك عندما زار مستشفى «سانتوماس» [١٦٨]، وعندما شاهده «تعجّب (...) من إتقان بنائه المحكم «وزاد إعجابه عندما «صعد إلى الرّواق الأعلى[١٦٩] وهو أضيق من الرواق التحتي

(...) واتساعه (...) يبلغ نحو ٩٠٠ قدم ونيف، ومع اتساعه وعلُوه لا يستند سقفه على عمد »[١٧٠] . وإذا كان إعجاب السلطان في أقصاه وهو يرى المبنى فكيف يكون شعوره وهو يرى رعاية المرضى؟ «تفقّد مخادع[١٧١] المرضى ورأى ما هي عليه من السّعة والنظافة وحُسن الترتيب» فلم يسعْه إلا أن قال: «ما هذه دار مرضى بل منازل تباري قصور الملوك! »[١٧٢] وكيف يكون شعوره وهو يرى «أصناف الملاعب التي يُحضرها خدّام المستشفى لتسلية الأولاد والأطفال المرضى»؟ لم يسعه إلا أن «زاد (...) سروراً(...) وأثنى على هِمَم (المدير) الخيرية وحُسن سعيه في تزويد المستشفى بكل ما يخفف على المرضى والمصابين أثقال أسقامهم وقال: لا عجب ! إنّ هذه حسنة كبرى عند الله»[١٧٣].

❖ **دُور الفقراء** : لم تكن الدولة وحدها مهتمة بصناعة التقدم ورعاية الإنسان، وإنما المواطنون – هم أيضاً – كانوا يشدّون أزرها ويعملون عملها. ولا أدلّ على ذلك من «منازل كبيرة جداً، وجميلة البناء، كأنها قصور ملوك أعزاء»، هي كما وصف السلطان، ولكنها ليست للملوك، وإنما هي «منازل قد أعدّها أصحاب الخير، منها للفقراء والبائسين، ومنها مستشفيات للمرضى والمقعَدين»[١٧٤] وهذا مما أثلج صدر السلطان ودفعه إلى التعبير عن شعور الرضا فقال : «طابت بذلك نفسي، واتسع صدري، وقلت : هذه حسنة كبيرة عند الله»[١٧٥].

تلك بعض المؤسسات التي دلّت على العناية بالإنسان مهما كان وضعه. وإذا كانت مدينة لندن قد وجد فيها الحيوان والطير والأسماك والمرضى والفقراء والبائسون والمقعدون هذه العناية اللافتة لانتباه السلطان، المثلجة لصدره، المطيّبة لنفسه فكيف لا يجد سائر الناس العناية بهم؟ كيف لا تتوفر لهم الطرقات الواسعة والحدائق الغنّاء؟ يجب علينا أن نرى عمران مدينة لندن بعيني السلطان، فها هو يقول: «لمّا جُلت شوارع هذه المدينة العظيمة وطفتُ ضواحيها الجميلة ورأيت قصورها [١٧٦] الباذخة، ودُرت بين جنائنها وحدائقها النضرة تعجبت من كبرها واتساعها وقلت : حقاً هذه مدينة من أعظم مدن الدنيا كلها كبراً، وأكثرها سُكّاناً وأحسنها خُلقاً وأجملها منظراً»[١٧٧].

لقد أدرك السلطان أنّ التقدم لابد أن يتجسّم في الإنسان، وأن الإنسان يعكس ذلك التقدم على المكان. فالإنسان - كما قلنا - هو محرك التقدم، وهو غايته. والسلطان قد عبّر عن هذه المعادلة بقوله : «أيّ نفس لا تطيب بحسن مناظر هذه الحاضرة الجميلة وبحدائقها النّضرة وبقصورها الباذخة وشوارعها المتسعة وخصال أهلها ولطف أخلاقهم المأنوسة؟» [١٧٨]. لقد عكس الإنسان ذوقه الرّاقي وفهمه المبدع على المكان فصار نضارة، وعكس المكان بجماله وأبّهته على الإنسان أخلاق الأُنْس فصار طيباً وعبَقاً.

**إنّها معادلة التحضّر.**

## - النهضة :

النهضة في نظر السلطان برغش ليست فلسفة ونظريات وإنّما هي عمل وتنفيذ. ونحن نريد في هذا الفصل التعرّف على جانبين من سعيه لتحقيق هذه الغاية وهما عوامل النهضة، وكيفية تحقيقها.

### ١ - عوامل النهضة :

النهضة ليست مجرد فكرة تعنّ، أو صورة تتراءى، أو خيال يتشكّل، وإنما هي مشروع يقتضي الوعي به، والبحث عن العوامل المؤدية إليه. وبعد ذلك يمكن الحديث عن كيفية تحقيقه والانتقال به إلى حيّز الواقع حسب مراحل محددة. وقد وجدنا في «تنزيه الأبصار والأفكار» من المادة ما يكفي لتوضيح مرحلة الوعي وهي تتمثل في العناصر التالية:

● **ثقافة السلطان** : إن الوعي لا يتحقق إلا بالثقافة، فالعلم بالواقع والواقع المناقض هو الذي يؤدي إلى الوعي، والنهضة حالة مطلوبة، ولم يكن التفكير فيها ممكناً إلا عندما أدرك العرب واقعهم والواقع المناقض. وما كان ليتبلور هذا الوعي الحادّ إلا عندما انتشرت ثقافة النهضة في القرن ١٩/١٣. وكان السلطان برغش متابعاً لهذه الثقافة، مطلعاً على أفكار الدعاة إلى النهضة والفكر الإصلاحي، مواكباً للأحداث العالمية. ولنترك ابن سعيد يصف هذا الجانب من شخصية سيّده: «قد ولع السيد برغش

- أعزّه الله - بالعلم والدرس والمطالعة، وجمع إلى خزانة كتبه جميع المؤلّفات العربية المطبوعة في مصر وغيرها من البلاد، وقد باشر بدَرْس اللغة الإنكليزية وأنجد أصحاب النشرات العربية، وهو يطالع الجوانب[١٧٩] والنّحلة[١٨٠] ونشرة مصر[١٨١] والرائد التونسي[١٨٢] وغيرها، ويحبّ الاطلاع على ما في النشرات الإنكليزية من المواد المهمة»[١٨٣].

❖ **اقتفاء أثر الوالد** : كان السلطان برغش متأثراً بشخصية أبيه[١٨٤] معتداً بها. وقد وجدنا في «تنزيه الأبصار والأفكار» ما يؤكد هذه الحقيقة. فقد كان الأب يجلس إلى أبنائه ويحدّثهم عن مشاغله وأشواقه ويكشف لهم عن آماله وطموحاته، من ذلك شهادة السلطان برغش بقوله: «كان أبي - تغمّده الرحمن برحمته - يحكي لنا - ونحن صغار - عن الملكة فيكتوريا[١٨٥] ويقول: إنّه يودّ لو تسمح له المقادير بمشاهدة هذه الملكة الجليلة. ولكن قضى نحبه ولم يقض وطره»[١٨٦].

وقد أكّد هذه النزعة في السلطان المسؤولون الإنكليز الذين يعرفون الأب والابن. فهذا السير هنري رولنسون[١٨٧] رئيس الجمعية الجغرافية الملكية يُصرّح بذلك فيقول: «أوّل من عني في إدخال الإصلاح والتمدّن في زنجبار كان والد السيّد برغش، المغفور له. ولمّا كان الولد سرّ أبيه حذا السيد برغش حذو والده وأفرغ همّته في إكمال ما كان قد باشره والده المغفور له»[١٨٨].

❖ **ضرورة «الاقتداء»[١٨٩] بالغرب**: هذه قاعدة أخذ بها كل الإصلاحيين ودعاة النهضة. وذلك اعتقاداً منهم أن نتائج التقدم التي حققها ذلك الغرب دليل على نجاح الوسائل التي استعملها. ودون أن ندخل في تفاصيل مسألة «الاقتداء» وتشعّباتها وتفريعاتها[١٩٠] فإننا نقول: إن السلطان برغش كان يسعى - من وراء رحلته - إلى الاطلاع المباشر على تقدّم أوربا. ولذا ألفيناه يُعبِّر عن موقفه من «الاقتداء» في لحظة استثنائية لها دلالة عميقة بوعي حادّ: «كان بلندن وهو يتمشّى في إحدى جنائنها فإنّه رأى الإنكليز يتردّدون على الحدائق والجنائن وهم في حبور وسرور. فالتفت إلى وزرائه الذين كانوا في معيته[١٩١] وقال: انظروا إلى هذا الشعب السعيد، وإلى ما هم عليه من

الحرية والغبطة. انظروا إلى أولادهم وبناتهم كيف يمرحون طرباً، وهم آمنون، لا خوف عليهم، ولا هم يجزعون. وما هذا إلا نتيجة العمران، وإجراء العدالة والإنصاف فيهم. فقد سبقونا إلى هذه الغبطة، فعلينا أن نقتفي آثارهم، ونجدّ في تحصيل ما أدركوه منذ أجيال عديدة، عسانا ندرك ما أدركوه، ونكون نعم المفلحين»[١٩٢].

وواضح في قول السلطان الربط بين السبب والنتيجة :

عدالة + إنصاف ←――― عمران ←――― حرية + غبطة

● **«محاكاة» الملكة** : إذا كان السلطان سعيد - كما رأينا أعلاه - معجباً بالملكة فيكتوريا ولم يرها فإنّ ابنه السلطان برغش قد تحقّق له حلم رؤيتها مباشرة. فها هو يُفصح عن مشاعر الرضا بعد أن التقى بها: «قد رأيتُ بعيني الآن ما كنت أشتهي عليه من نعومة أظفاري وتشرّفتُ بالنظر إلى محيّا ملكة الإنكليز وجهاً لوجه !»[١٩٣]. هذا الإعجاب كان ملازماً للسلطان، لم يفارقه في زياراته ولقاءاته في لندن. لقد كان حريصاً على اقتفاء أثر هذه الملكة في شعبها. فبينما كان في زيارة مستشفى سانتوماس وشاهد «تمثال الملكة الموجود في صدر (الحجرة) سُرّ بمشاهدته»[١٩٤]. وعندما زار دوق كبمريدج لاحظ أنّه «يجلّ الملكة غاية الإجلال»[١٩٥]. ولماذا نبحث عن جوانب الإعجاب المؤدّية إلى المحاكاة - إن لم يكن في الكثير ففي القليل - والسلطان قد كفانا المؤونة بتوضيح مصدر ذلك الإعجاب في صفحة كاملة من «نزهة الأبصار»؟ فمن جملة ما قال: «إني رأيت كثيرين من الإنكليز - سواء كانوا من القواد أو من الجنود أو من التجّار - يمدحون غاية المديح هذه الملكة المعظمة ويُثنون عليها كل الثناء!» ويكشف عن سرّ المديح لها بقوله «سبحان من أعطى هذه المرأة حُكماً، وعلّمها الجلوس على العرش وأيّدها على سياسة المُلك وجعل الأمّة تنقاد إليها انقياد البنين لا انقياد العبيد!»[١٩٦].

لقد حدّد السلطان سياسة الملكة: إنّها سياسة «الأم» لا سياسة «السيدة»[١٩٧].

● **الإعجاب بالتقدم** : لم يكن السلطان ليخفي إعجابه بالتقدم الذي شاهد أثره في لندن في جميع المجالات. وكان لا يتردّد في الإفصاح عن كوامن الرّضا والتعبير بالشكر

على الجهود التي يبذلها الإنكليز في السعي إلى المزيد منه. وكأنّه كان يشعر بالراحة النفسية عندما يُظهر ذلك الشعور. سأله ولي العهد عمّا سرّه في لندن، فقال: «قد سُررت غاية السرور بكل ما رأيته في مملكة جلالة الملكة» [١٩٨]. وقد يذهبنّ بنا الظنّ إلى أن هذا القول إنّما هو تعبير عن موقف دبلوماسي يتميّز بالمناورة! إلا أن الأمر ليس كذلك، فالشواهد على إعجاب السلطان بتقدّم بريطانيا عديدة. منها مثلاً ثناؤه على مدينة ليفربول في قوله: «قد شاع صيت مدينتكم (...) في جميع الأقطار، واشتهر ذكرها في الأمصار، وذاع اسمها حتى في زنجبار. واليوم نشاهد بأعيننا عظمة هذه المدينة وجمالها وحُسن مينائها وكثرة بوارجها وسفنها واتساع تجارتها ومَجْد سكانها ولُطف أهلها، فحُقّ علينا أن نفتخر بهم، ونقتفي آثارهم إذا كنّا نودّ أن نكون من المفلحين!» [١٩٩].

وقد رأينا - فيما تقدّم - ثناء السلطان على التقدم العمراني.

● **خصب زنجبار** : كان خير الدين باشا [٢٠٠] لا يرى أن خصب الأقاليم واعتدالها من أسباب النهضة [٢٠١]. وهذا لا ينفي أهميته في الإسراع بالنهضة وفي تقوية زخمها. ومهما يكن من أمر فإن السلطان برغش لا تعنيه - كما قلنا - النظريات. وكيف يعنيه ذلك وهو يحكم بلاداً خصبة، ثرية؟ أليس ذلك مما يدعّم موقفه ويدفعُه إلى الحرص على إيجاد آليات النهضة؟

وقد شهد الإنكليز بحقيقة الخصب في زنجبار. فهي حسب شهادة الجنرال ركبي [٢٠٢] أمام السلطان في الجمعية الجغرافية الملكية - «لا مثيل لها في خصب التربة على سطح البسيطة بأسرها» [٢٠٣] وليس هذا فقط، وإنما هي أيضاً «أعظم بندر لتجارة العاج [٢٠٤] ولتجارة القرنفل [٢٠٥] والصمغ [٢٠٦]. والسكر [٢٠٧] والقطن [٢٠٨] وغير ذلك» ولخص الجنرال وصفه: «لنا أن نقول قولاً لا يُخشى عليه من مُنكِر: أن غلال زنجبار لا حدّ لها ولا نهاية» [٢٠٩]. وشهد شاهد آخر بمثل هذه الحقيقة. فلقد خاطب والي ليفربول الحضور بمثل ما قاله الجنرال مركّزاً على المواد الأولية [٢١٠] فقال: «قد أحطتم علماً - أيها السادات- بما في مملكة ضيفنا الجليل من الغنى والمحاصيل والمعادن والخضار الدائم وبساتين النارنج [٢١١]، وغيرها من الكنوز المدفونة في تربة تلك البلاد السعيدة» [٢١٢].

وذهبت الصحف البريطانية مذهب المسؤولين الإنكليز في الإشادة بغنى زنجبار وخصبها. فصحيفة «التيمس» [٢١٣] مثلاً أوردت الوصف الموجز التالي: «قد اشتهرت بلاد السيد برغش من قديم العصور بالخصب والغنى» [٢١٤] وجودة التربة والمعادن «وحدّدت نوع الإنتاج الفلاحي بقولها: «وأراضي بلاده صالحة لزراعة كل ما تنبته بلاد المناطق الحارة الشديدة الخصب» [٢١٥].

وما قاله الإنكليز - مسؤولين ورأياً عاماً - ليس غريباً على السلطان، ولا كشفاً جديداً في كلّه. فقد كان يعرف ما تحويه أرض بلاده من «كنوز»، بل كان لا يتردّد في التعريف بتلك الثروات فهو الذي صرّح لصحيفة «التيمس» بقوله «كم وكم من معادن الفحم في بلادي، ولكن للأسف لم تزل هذه الكنوز مُغلقة في وجوه شعبي، ومطمورة في قلب الأرض إلى الآن!» [٢١٦].

وهناك ميزتان أخريان يمكن حشرهما ضمن الخصب الذي تتميّز به زنجبار، وهو ممّا يؤكّد قبولها للنهضة واستعدادها لها. الميزة الأولى أن هذه البلاد جزيرة، لذلك توفّرت «فيها مراسٍ كثيرة للسّفن تُسهّل على التجار نقل المحاصيل والغلال، منها إلى جهات الدنيا» [٢١٧]. أمّا الميزة الثانية فهي أنّ « حدود هذه البلاد » قابلة للتوسع ذلك أن مُلك السلطان برغش لا ينحصر فيها فقط «بل يمتدّ إلى ما شاء الله في أصل البرّ من إفريقية» [٢١٨]. وليس هذا التوسع مجرّد إمكانية فحسب وإنما هو واقع ملموس إذ تمكّن السلطان من الوصول إلى «البحيرات» [٢١٩] فقد كانت «هذه البحيرات تحت أمر سعادة السيد، وقد توغّلت جنوده في تلك الجهات ونصبت خيامها إلى جوار بعض البحيرات» [٢٢٠].

## ٢ - تحقيق النهضة :

تبيّن لنا أن عوامل النهضة متوفرة في زنجبار. ولكن كيف يمكن تحقيقها؟ كيف يمكن إنجاز هذا المشروع التاريخي؟ كيف يمكن الانتقال من عصر العبيد إلى عصر الأحرار؟

لم يفتأ السلطان برغش يُعبّر عن اقتناعه بضرورة إيجاد الوسائل والآليات التي تؤدي إلى هذه الغاية الصعبة. كما يعتقد أن النهضة لا تتحقق بفعل طفرة، أو بضربة ساحر. كان يحاول أن يوفّر الوسائل وذلك هو الأمر العسير !

لقد عبّر السلطان - عند البحث عن الوسائل - على موقفين متباينين في الظاهر، وهما - في الحقيقة - يتطابقان ويتكاملان:

أما الموقف الأول - وهو الأهم في نظرنا - فهو موقف الاعتزاز. فقد كان لا يفتأ يبرز استقلاله ببلاده وأنّه هو المسؤول عن إنجاز نهضتها. وهذا السلوك لا يتناقض - في نظره- مع الاعتراف بالولاء لبريطانيا. فالصداقة في الحياة مطلوبة، وهي - في السياسة - أكثر أهمية لما ينجرّ عنها من فوائد للشعوب، ولما يتحقق عنها من تعاون وتبادل المنافع. كان السلطان مدركاً لأهمية الاعتزاز أمام هؤلاء الأقوياء. فلم يتردّد مثلاً في تذكير والي ليفربول والحضور بالحقيقة التالية: «قد هاجرت الحضارة والمعارف من بلادنا الشرقية إلى بلادكم الغربية منذ عهد قديم» (٢٢١) هذه الجملة تلخّص الموقف. فالرجل يقف على أرض صلبة، وينتمي إلى مرجعية موثوق بها. ومن كان يمتلك الحضارة والمعارف، وفقدها في مرحلة من التاريخ هو قادر على استرجاعها، وهو أهل لها وليس غريباً عنها.

ومما يدعّم ثقة السلطان بنفسه أنه ما كان يسكت على تقصير الإنكليز في القيام بواجبهم فهو ينعتهم بل يصمهم بقوله : «أنتم - يا معشر الإنكليز - تكتفون بالثناء!» (٢٢٢) بل يسخر منهم - في السياق نفسه - مقارناً بين عقلية العرب وعقلية الإنكليز فيتمثّل: «تقول العرب: من يكتفي بالشفقة على المسكين ليس كمن يمدّ له يد المساعدة!» (٢٢٣).

أمّا الموقف الثاني فهو موقف الاعتراف بالضعف. كان السلطان يُعلن حسرته على حال بلاده الضعيفة، خاصة إذا قارنها بما عليه بريطانيا من تقدّم وسؤدد. فهو لا يعبأ بإظهار لوعته أمام والي ليفربول فيقول: «أنتم حقيقون بأن تفخروا ببلادكم السعيدة، وتتباهَوْا بعوائدكم الحميدة. فياليتني كنتُ في منزلة تحاكي منزلتكم الرفيعة حتى كنتُ أباريكم في الافتخار بملكتي!» (٢٢٤).

ولا يذهبنّ بنا الظنّ إلى التشكيك في عزيمة السلطان وتوقّع انكساره. إنّه عبّر عن موقف الحاجة إلى مساعدة الإنكليز. وهذا داخل ضمن السياسة. هذه الحاجة لا تعني التسوّل وإنما تعني طلب «الخميرة» فقط. نعم، تلك المادة العجيبة التي تحوّل الحياة الساكنة إلى حياة ناهضة. ومستقبل زنجبار ونهضتها متعلّقان بهذه الخميرة. فالسلطان يعتقد أن مقومات النهضة في بلاده متوفرة، وأن مسبّبات الحضارة ليست غريبة عنها. ألم تنتم بلاده إلى الشرق مهد الحضارة؟ يقول السلطان: «لمّا طال اشتياقنا إليها (أي الحضارة) وأبَتْ أن تعود إلى أوطاننا أتينا قاصدين حماها وطالبين عَوْدها إلينا. وقد صمّمنا على نقل شيء منها وإنْ تعذّر لدينا الحصول عليها برُمّتها!»[٢٢٥] ويعلم السلطان أن «الحصول عليها برمّتها» إنما هو أمر مستحيل. أما «نقل شيء منها» فهذا هو الممكن. ولكن هل ينفع هذا الشيء القليل؟

الجواب عند السلطان أن : نَعَمْ، فلنتركه يوضّح وجهة نظره: «تؤمّل بأن يكون هذا الشيء القليل بمنزلة خميرة نضيفها إلى عجين النجاح في بلادنا فتُخمّر العجينة بأسرها، وتترقّى زنجبار مع تمادي الزمان إلى درجة التمدّن والعمران الذي نراه اليوم يزيّن بلاد الإنكليز السعيدة. ويرفع مقامها بين الأمم»[٢٢٦].

فالسرّ يكمن - إذن - في الحصول على «الخميرة» ذلك العنصر المساعد[٢٢٧]. وعلى الدولة البريطانية واجب أن تمدّه بتلك الخميرة. وهذا الواجب - في نظر السلطان - له مبرراته:

◆ **العلاقة التاريخية بين الدولتين** ، يقول السلطان :«لا يخفاكم - أيها السادات- أن دولتنا قد حافظت على مودّة الدولة البريطانية منذ مائة عام[٢٢٨]»[٢٢٩].

◆ **المحافظة على مستقبل هذه العلاقة والحرص على تقويتها.** يقول السلطان : «ليس في قلبنا رغبة أشدّ من رغبتنا في المحافظة على هذه المودّة - نحن وأولادنا وخلفاؤنا من بعدنا - إلى ما شاء الله»[٢٣٠].

◆ **توفّر الخميرة عند هذه الدولة الصديقة** ، فيخاطب السلطان الإنكليز قائلاً: «إن مجد بلادكم خلقه التمدّن. وقد نشأ في حُضن المعارف، وبلغ أشُدَّه في تقاريع الدهور والأعصار. وأما زنجبار فقد وُلدت في حضن الخشونة، وما زالت في عهد الطفولة. وكم من الأيام والأعوام يقتضي لها أن تشُبّ وتكبر؟ ولكن كيف تشبّ وتكبر وليس لها من لبان المعارف قطرة. وكيف تتقوى وتعتزّ وليس لها من قوت التمدّن شذرة؟ ولكن إن بذلت بريطانيا الصديقة جهدها وأرضعتها لبان المعارف والتمدّن والفلاح شبّت على طبع صديقتها، وحذت حذوها، وبلغت أوج المعالي وجلست عن يمينها، واستوت على عرش العزّ والأمجاد» (٢٣١).

◆ **ضريبة إبطال تجارة الرقيق** .ألمْ تعدْ بريطانيا السلطان الوعود الغلاظ ؟ ألمْ تعِده بالتعويضات المالية الناتجة عن الخسائر؟ ولكن السلطان في حاجة إلى «الخميرة» وقد وعدت بريطانيا السلطان بإعادة تأهيل الرقيق وهم الفئة الأغلب في مجتمع زنجبار.

إن السلطان - في آخر الأمر - لا يطلب معاملة تفضيلية. يطلب الوفاء بالعهود وإتمام الوعود، ويطلب تبادل المنافع. وهذا المطلب يمكن إجماله في مُرادين:

**المراد الأول يتمثل في المساعدة على تكوين الإنسان :** لقد أدرك السلطان أنّ العمل هو أساس النهضة. وانتبه إلى أن حب العمل هو ما يميّز بين الشعوب. وقد وجدنا في «تنزيه الأبصار والأفكار» ما يؤكد هذه الرؤية. ويمكن توضيح ذلك بالحديث عن العامل الإنكليزي والعامل الزنجباري.

( أ ) **العامل الإنكليزي** : كان السلطان برغش دقيق العيان، سريع الملاحظة. هذا الانتباه مكّنه من اكتشاف طبيعة الإنكليزي في الإقبال على عمله والإخلاص فيه. فعندما دخل غرفة التلغراف «وقف (...) وهو ينظر بسرور عظيم إلى ١٠٠٠ شاب منصبيّن على إرسال الرسائل التلغرافية إلى جميع بلاد الدنيا بسرعة البرق» (٢٣٢). هذا الانصباب على العمل والإقبال على ما يقتضيه هو نفسه ما لاحظه في البنك «فقد كانت أشغال البنك سائرة على مألوف العادة بدون أن يحصل توقيف فيها حين كان (...) يتفقّد أحوال البنك ومخادعه» (٢٣٣).

وأدرك السلطان حقيقة أخرى تتعلق مباشرة بالعمل ألا وهي الزمن. فالعمل الإنكليزي مقيّد بالوقت، لأن الوقت إنتاج، وتضييعه تضييع لذلك الإنتاج. فقد شاهد في بنك لندن ساعة كبيرة عجيبة التركيب ولها ست عشرة ميناء [٢٣٤]، وكل ميناء موضوعة في مخدع من مخادع البنك على بُعد ومَعْزل عن آلة الساعة، وقد وصلوا بين دواليب الساعة وبين كل ميناء بسلك كهربائي يبلغ طوله ٢٢٥ ذراعاً ونيفاً. فتنقل الكهرباء حركات دواليب الساعة إلى المخادع الموضوعة فيها الميناء. وتدور العقارب على ساعات الوقت ببطء وإحكام لا يعتريه خلل» [٢٣٥].

وقد صادف أن سُمح لعمّال القطن [٢٣٦] بمشاهدة السلطان وهم في هندام العمل. فرأى السلطان في ذلك تكريماً له أكبر مما اعتقد المسؤولون. فقال مخاطباً لهؤلاء: «امتلأ قلبي حبوراً بينما كنت أطوف المدينة (...) فرأيت العملة الذين يشتغلون في معامل القطن وغيرها يتزاحمون في الأزقة ليشاهدوني [٢٣٧] وهم لابسون ملابس الشغل وقد أشارت إليهم صحيفة الأخبار: أنهم تقاطروا أفواجاً إلى الشوارع وهم لابسون ثياباً مبقّعة بأقذار المعامل. ولكن تلك البقع في ملابس العملة هي - عندي - أثمن من الجواهر الكريمة وهي أشرف من نواشين [٢٣٨] الشرف التي تُعلّق على صدور الملوك. فلولا تلك البقع في ملابس العملة لما تيسّر للملوك لبس الشفوف [٢٣٩] وحمل نواشين الشرف على صدورهم!» [٢٤٠].

هكذا حدد السلطان صورة العامل الإنكليزي.

**(ب) العامل الزنجباري** : هل يمكن الحديث عن العبد وهو يعمل ؟ هل ذلك العبد عامل إنتاج؟ هل نعتبر العبيد في زنجبار قوة إنتاج؟ الجواب : نعم، وبلا منازع. فعلى أكتاف هؤلاء كان يقوم الاقتصاد الزنجباري [٢٤١] هذا صحيح! إلا أن الخطأ كامن في أن العبيد لا يمكن أن يحقّقوا النهضة فالعبد مسخّر، والمسخَّر حيوان لا يجتهد. هنا تكمن المسألة: إذا أراد السلطان أن ينهض ببلاده فعليه تحرير الإنسان بمعنى ليس تسريحه فحسب، بل وكذلك تأهيله.

لقد تمكّن السلطان من الاقتناع بهذه الحقيقة عندما زار لندن ورأى فيها أن الحرية تعني الالتزام بالواجبات وأداء العمل كما ينبغي. ولهذا عندما شاهد العمال الإنكليز «وهم

لابسون ملابس الشغل» تحسّر على حال العمال في بلاده فقال: «يا ليت كان في مملكتي رجال من العملة على طراز رجال مدينتكم هذه. فإن رفاهية معاش الأغنياء قائمة في اجتهاد العملة، وهم أيدي وأرجل الأمة والمملكة، وبدونهم لا يتيسّر لهما السير على قدم النجاح» (٢٤٢).

هكذا رسم السلطان عمّال بلاده. فكيف الانتقال من وضع الكسل والتهاون إلى الجدّ والإخلاص؟

داعب خيال السلطان حُلم عبّر عنه في قوله: «أود لو أن أقدر أرسل قوماً من شعبي إلى مدينتكم هذه ليتعلّموا من عملة معاملكم منافع الشغل والجهد، ويرجعوا إليّ وهم لابسون ثياباً عليها بقع المعامل. وأنا أضيف إليها نواشين شرف منضّدة بالجواهر الكريمة» (٢٤٣).

ويبقى عنصر تأهيل الإنسان هو المسألة الكؤود!

**المراد الثاني يتجسم في الدعوة إلى التعاون:** فالتعاون - في نظر السلطان - هو الباب الآخر الذي يمكن لبلاده أن تدخل منه إلى عصر النهضة. فقد يستطيع - إذا مدّت له بريطانيا يد العون - أن يُغيّر الوضعية المتردية لأبناء شعبه. ولتحقيق هذا الغرض سافر إلى هناك (٢٤٤).

كان السلطان لا يترك فرصة إلا وذكّر الإنكليز بواجب التعاون حتى لا تنهار بلاده بسبب إيقاف تجارة الرقيق، وبسبب ما عليه العبيد/الأحرار من كسل وتهاون. ثم إنه - كما كرر ذلك مراراً - يريد النهوض ببلاده. وقد كان حدّد مشكلتين يريد من الإنكليز أن يساعدوه على حلهما.

أما المشكلة الأولى فتتمثل في توفير الإنتاج. فبلاده خصبة إلا أنه ينقصها أساليب العمل العصري، وتنظيم القوة العاملة. والتعاون في هذا المجال بين الدولتين ينفع الجميع. وهذا ما صرّح به أمام والي ليفربول في قوله: «لمّا كان من دأب الله - جل جلاله - أن لا يُرسل الإمداد من السماء كما ينزل المطر على الأرض، بل يوعز إلى القويّ بمساعدة

الضعيف، فلنا ثقة به - تعالى - أن يوعز إلى دولة بريطانية القوية أن تمدّ يد المساعدة إلى دولة زنجبار الضعيفة، وتأييدها على تعميم أسباب الحضارة والعمران» ثم بعد أن أشاد بذكر ليفربول أردف قائلاً: «لكن لا يكفي زنجبار أن تتشرّف باستماع ذكر ليفربول فقط، بل تحتاج إلى رجال ليفربول أن يشرّفوها بما عندهم من الوسائط وأسباب العمران، ويرسلوا إليها عمدة تجّارهم ومهندسيهم وأرباب صنائعهم النفيسة فيسعون في فلاحة أراضيها الواسعة، وإخراج ما فيها من المعادن، وتعميم الصنائع إلى غير ذلك، فيعود ذلك خيراً عليهم وعلى زنجبار وعلى ما حولها من الأراضي في أصل البرّ»[٢٤٥].

أما المشكلة الثانية فهي تكمن في التسويق. إنّ زنجبار ليست لها وسائل نقل ولا طرق ترتيب السلع والمحافظة عليها. وكان السلطان يريد من التجار الإنكليز أن يصلوا بلاده بشبكة تجارتهم. وهذا ما أعلنه أمام «لجنة فيشمنجر»[٢٤٦] فقال الناطق باسمه: «يأسف السلطان كل الأسف على أن مساعيكم الحميدة لم تصل بعدُ إلى بلاده السعيدة. ولهذا يطلب إلى عمدة[٢٤٧] هذه اللجنة القابضين على زمام تجارة واسعة في الممالك البريطانية أن يصرفوا عنان العناية إلى إدخال أسباب التجارة إلى بلاده أيضاً، وهو لا يقصّر عن مدّ يد المساعدة لهم في كل ما تمسّ إليه الحاجة لتوسيع نطاق الحضارة في إفريقية»[٢٤٨].

**موقف الإنكليز** : الاتجاه العام الذي عبّر عنه الإنكليز هو الإصغاء لمطالب السلطان وإظهار القبول. فهذا السير بارتل فراير يدعو «لجنة فيشمنجر» إلى تحقيق ما يطلبه السلطان فيقول: «ما بقي لنا سوى أن نطمع في همّة وعناية تجار الإنكليز من أصحاب الثروة والغنى[٢٤٩] أن يقصدوا بلاد زنجبار بأموالهم الوافرة وينشئوا فيها بيوت تجارة واسعة، فإنها أحسن بلاد إفريقية موقعاً، وأغناها محاصيل، وأخصبها تربة وفيها مرافئ عديدة أمينة للسفن والمراكب ويقصدها أكبر تجار بلاد الهند[٢٥٠] وغيرها. ولها والٍ حكيم ذو همّة عالية ورأي سديد يسهر ليلاً ونهاراً على نجاح بلاده وخير رعاياه»[٢٥١].

فظروف نجاح هذا التعاون متوفرة حسب هذا الخطاب. ولم يبعد الخطيب عن الحقيقة لأننا وجدنا مسؤولاً آخر يلحّ على ضرورة التعاون مع زنجبار. فهذا والي ليفربول يُحرّض على اغتنام الفرصة في خطاب طويل نقتطف منه قوله: «أنتم تعلمون علم اليقين أن

إخراج هذه الكنوز من قلب الأرض يحتاج إلى مبالغ وافرة من النقود. وقد سمعتم مراراً عديدة من فم سعادته أنّه يرغب من صميم قلبه في أن يرى شعب هذه المملكة البريطانية مشمّراً عن ساعد الهمّة والجدّ ومُقبلاً على بلاده، وساعياً في توسيع نطاق الفلاحة والزراعة والتجارة والمعارف إلى غير ذلك. وأنا لي ثقة أكيدة في أهل ليفربول المشهورين بعلو الهمة والإقدام وفتح أبواب التجارة في الدنيا بأسرها أن يغتنموا هذه الفرصة النادرة ويفتحوا أبواباً واسعة للتجارة في زنجبار »(٢٥٢).

وإذا كان المسؤولون الإنكليز قابلوا مطالب السلطان بالرّضا والدعوة إلى الاستجابة فإننا وجدنا بعضهم ما زال يُشكّك في نية السلطان التعاونية كما شككوا في تنفيذه معاهدة إبطال تجارة الرقيق، بمعنى آخر أنه توجد فئة من هؤلاء المسؤولين لايريدون الاعتراف بما حققه في مسألة الرقيق ولا يحبّذون تصديق نواياه في التعاون. فهذا رئيس « مجلس التجارة » في منشستر يقول بوضوح لا غبار عليه: « لاشك أنك تفي بوعدك الصادق وتبطل تجارة الرقيق تماماً، وتعضد التجار في بلادك على فتح أبواب جديدة للأشغال والأرباح والمعامل التي عليها مدار عزّ المملكة وجاهها وقوّتها »(٢٥٣).

ونعتقد أن السلطان لم يكن خبّاً ولا ساذجاً فقد كان يُدرك مناورات الساسة وتلاعبهم بعواطفه وأحلامه. وكان لا يني في ردّ الفعل لأنه لم يكن متسولاً وإنما كان مطالباً بحقوق، حقوق تقتضيها معاهدة ١٨٧٣، وحقوق يقتضيها واجب الصداقة. ولهذا ألفيناه لا يسكت على التشكيك في نواياه أو تصديق الأباطيل التي كانت تروّج ضده، فيأمر الناطق باسمه بالردّ على خطاب رئيس « مجلس التجارة » بقوله: « إن السلطان لا يُقصّر في شيء من كل ما وعد به، ويؤمّل بأن أمة الإنكليز أيضاً لا تخرم(٢٥٤) بوعدها مع دولة زنجبار »(٢٥٥).

ولن ينفع السلطان الدفاع عن نفسه لأن الصورة واضحة المعالم أمام الإنكليز، ويمكن التعرّف عليها من زاويتين:

الزاوية الأولى مظلمة : ذلك أن السلطان لم يعالج قضية التعاون مع الطبقة المسؤولة في الحكومة البريطانية، تلك الطبقة التي بيدها القرار. فهو لم يناقشها البتّة لا مع الملكة

التي أحسنت استقباله[٢٥٦] ولا مع ولي العهد[٢٥٧] ولا حتى مع «دوق أف كمبريج»[٢٥٨] بله رئيس البرلمان[٢٥٩].

الزاوية الثانية هي الزاوية المفتوحة على المستقبل، وليس مستقبل السلطان بطبيعة الحال، وإنما هو مستقبل الإنكليز في زنجبار، بل وفي إفريقيا. لقد وجدنا في «تنزيه الأبصار والأفكار» ما يشي بذلك، بل ما فيه تصريح، وهذا - في رأينا - ما يفسّر سكوت الطبقة المسؤولة عن معالجة القضايا التي تشغل السلطان معه. ومما يؤكد أن ما يعني الإنكيز هو زنجبار الثروة وليس زنجبار الدولة ما أفصحت عنه صحيفة «التيمس» نهار مغادرة السلطان[٢٦٠] نورده في الملاحظات التالية[٢٦١]:

- ادّعاء الصحيفة أنّ السلطان برغش «مقامه - في أعين أمّتنا الإنكليزية - أرفع من مقام الشاه[٢٦٢] وذكره أحبّ إلينا».
- وقوف بريطانيا في وجه «إسماعيل باشا[٢٦٣] خديوي مصر [ الذي] طمع في توسيع ملكه (...) إلى أواسط إفريقية».
- الاعتراف بأن «للسيد برغش حقاً في توسيع ملكه إلى ما شاء الله من دون أن يعترض له عارض»[٢٦٤].
- اكتشاف «السيّاح أن تلك البلاد التي كانت مجهولة عند علماء رسم الأرض قديماً هي بلاد سعيدة مخصبة تسكنها قبائل قابلة للتمدن والحضارة، ومناخها ليس بسقيم كما كان يزعم القدماء وهي تصلح لسكنى الأوربيين أيضاً إذا اختاروا الإقامة فيها، وسعوا في توسيع نطاق الزراعة والتجارة».
- توقّع أن «تضحي مملكة زنجبار - بعد ١٠٠ عام - مملكة واسعة تشمل أراضي فسيحة وتمتد إلى أقصى بلاد الزنوج»[٢٦٥].

هكذا يبقى أمل النهضة يراود السلطان برغش!

## الخاتمـــة :

أبحرنا - في هذا البحث - مع السلطان برغش، وحاولنا أن نتعرف على التصوّر العملي لتحقيق مشروع النهضة في زنجبار. فتبيّن - لنا - أنّ طريقته في معالجة المسألة تختلف عن المحاولات النظرية أو التطبيقية الشائعة. وإذا كان السلطان قد تميّز بنظرته الثاقبة عن غيره من المفكّرين والسياسيين فإنه تميّز - فعلاً - بوضع الإصبع على مشكلة من أعظم المشاكل التي يعاني منها العرب إلى اليوم، وهي تحويل العمل إلى قيمة. وقد نجد في بعض البلاد العربية الآية الكريمة: ﴿ وقُل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه والمؤمنون ﴾ (التوبة ١٠٥) مبدأً من مبادئها السياسية فما ذلك - في الحقيقة - إلا شعار.

لقد كشف السلطان - في ملاحظاته القليلة - ولكنّها أصيلة - عن أهمية العمل. فالمشكلة تكمن - عنده - في كيفية تعويد الشعب على حب العمل والتخلّي عن حالة الخمول والكسل. وما توصّل إلى إدراك صُلب المشكلة إلا عندما شاهد العُمّال الإنكليز يصنعون التقدم، لأن التقدم صناعة، والصناعة إنتاج.

كل ذلك صحيح. إلا أن الخطأ يكمن في تصور السلطان أن «خميرة» الحضارة التي تحدّث عنها يمكن - في وهمه - أن توفّرها بريطانيا، أو أوربا، والحقيقة أنّ تلك الخميرة لا تُستورد، ولا تُوهب، ولا تكون سُلفة. إنّما يجب صناعتها محلياً، بمعنى هي تقتضي إعادة بناء شخصية الإنسان. فالإنسان هو محور التقدم، هو جوهر حركة التاريخ، هو الوسيلة والغاية. ولا يتسنى بناء هذا الإنسان إلا بالتعليم، والتربية. التعليم المُبدع الذي يحرّر الطاقات ويُفرج عن الكوامن، وليس التعليم الحِرفي الذي يُخرّج موظفين بليدي الحس وفاقدي الابتكار. والتربية التي تصوغ الإرادة صياغة حية دافعة خلاقة متوثّبة، وليست التربية التي تكْسِر الكيان وتُدجّن الدوافع.

ويشي السلطان - وهو المعجب بالملكة فكتوريا - بأن السرّ - في تقدم الإنكليز وحبهم للعمل وإخلاصهم للوطن - هو سياسة «البنين» لا سياسة «العبيد» وكأنّه يريد أن يقول إن النهضة لا تتحقق إلا بتوفّر حكم على الطريقة الفيكتورية.

وتبقى الأسئلة قائمة، لم تتزحزح: هل حقّق العرب النهضة ؟ هل دخلوا عصر التقدم ؟ وما مرحلة ذلك التقدم : أهو الصناعة ؟ أم هو التكنولوجيا ؟ أم هو التكنولوجيا الدقيقة؟

❁❖❁❖❁

# الهوامش

١ - الأوصاف جمع وصف. ووصف الرحلة يختلف عن الرحلة ذاتها لأن الرحلة هي الحركة في المكان والزمان ولها أسبابها مثل الحج. وطلب العلم، والسفارة، والمصاحبة، والسياحة .. الخ. أما وصف الرحلة فهو تدوين أخبار تلك الرحلة، وله دوافعه مثل وصف المسالك، والاعتبار، وإثارة الشوق، والتعريف بالكسب العلمي، والاقتداء، والإعلام وتدوين أخبار الملوك، وتخليد الذكر. فوصف الرحلة هو إذن الكتاب الذي نقرأه. ونجد في اللغة الفرنسية هذا المصطلح (Relation de Voyage) أي : وصف الرحلة. يُنظر بحثنا: مظاهر: ص ٨ - ١١، حسين: أدب الرحلة: ص٩-١٧، نصار: أدب الرحلة: ص ١٨-٥٠، ٥١-٥٦. وعن المصطلح الفرنسي انظر: Robert: p1631.

٢ - هذا المصطلح أطلقه العرب في القرن ١٣/١٩ على ضرورة الخروج من مرحلة المحافظة والجمود إلى التقدم الذي حققته أوربا. وهو يقابل Renaissance عند الأوربيين. والنهضة مرحلة سابقة للتقدم. ولهذا اختلف المفكرون والساسة العرب في وسائل تحقيقها. ونلاحظ أن هذا المصطلح مازال حياً تتبناه أحزاب ومنظمات في بلاد العرب. يُنظر عنه: خير الدين، مقدمة المحقق ص ٢٣-٦٤، وفصل: Nahda: E. I. 2: V 11/900-3.

٣ - هو برغش بن سعيد البوسعيدي (ح. ١٢٨٧/١٨٧٠- ١٣٠٥/١٨٨٨) قال فيه المغيري: «هو آخر سلاطين زنجبار اسماً ومعنى» وقال فيه أيضاً : «نادرة سلاطين زنجبار» له أعمال جليلة إلا أنه قام «ببناء القصور، وغرس البساتين وكثرة الحاشية البذخ والإسراف في المصاريف»، كل ذلك اقتداء ببعض زعماء الهند التي نفي إليها قبل تولي السلطنة، وتقليداً للتمدن الأوربي بعد رحلته إليها. ينظر: جهينة: ص ٣٢٧-٣٦٠. أما أخته سالمة فوصفته «بالقسوة وشدة العقاب» وأنه «لا يعرف قلبه الرحمة ولا الشفقة» وأنه خاضع للقنصل البريطاني... الخ. ينظر: مذكرات : ص ٣٠٦-٣١٦. وقد لخّص السالمي القول فيه: «ولبرغش بن سعيد مآثر حسنة. فإنه خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً (...) وبسط أخباره يحتاج إلى مجلد. ينظر: تحفة ٢٢٩/١. ويُنظر أيضاً الفصلان: Barghash: E.I. ٢:١/١٠٤٣ (Becker). N.E.B.: ١/٨٩٥.

٤ - هو زاهر بن سعيد النخلي تولى الكتابة الخاصة للسيد ماجد ثم للسيد برغش. يُنظر : المغيري: جهينة ص ٣٢٨.

٥ - هي جزيرة واقعة في المحيط الهندي، تبعد عن البر الإفريقي مسافة ٣٥كم. ومساحتها حوالي ١٦٥١كلم٢. دخلها العرب العُمانيون بعد انتصارهم على البرتغال سنة ١٦٩٨. إلا أنها لم تزدهر إلا في عهد السلطان سعيد (١٨٠٦-١٨٥٦) الذي توسّع في الساحل الشرقي لإفريقيا. ولكن الإنكليز تدخلوا شيئاً فشيئا حتى ألغي الحكم العربي العُماني فيها سنة ١٩٦٤. ونلاحظ أن (N.E.B) اكتفت بذكر الحكم العربي بعبارة: Zanzibar was the base for the Arab-Shirazi trading system . ينظر عنها: المغيري. جهينة، سالمة: مذكرات، فصل: زنجبار: د.م.إ: ٤٢٧/١٠، الغيث: التأثيرات ص ٢٩-٣٥. وN.E.B:١٢/٨٩٥ و ٢٠/١٢٨٧٦: G.E.

٦ - هذه الرحلة جمع وصفها زاهر بن سعيد ثم قام لويس صابنجي بترتيب الوصف وتصحيحه وإثرائه بالمعلومات والصور وأشرف صابنجي بنفسه على نشره في مطبعته بلندن سنة ١٨٧٨/١٢٥٩ في ٩٢ ص من القطع الكبير، وكل صفحة فيها عمودان. ثم أعادت وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، مرّة ثانية سنة ١٩٨٨ حسب رقم الإيداع. وهذا النص جدير بالتحقيق العلمي لأهميته وهو ما شرعنا فيه. وقد قمنا ببحث في هذا النص ونص آخر في الرحلة. ينظر: رحلات.

٧ - وجدنا نازك سابايارد في بحثها: «الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة» لم تطلع على هذا الكتاب، ولم تورده حتى في الثبت الذي وضعته للرحّالين في القرنين ١٩-٢٠. ينظر: الرحالون: ص ٥٩-٥٤٢، ص ٤٨١-٥٠١، وبحثنا: رحلات ص١.

٨ - تصوّر بعض حكام العرب - في القرن ١٩/١٣ - أن المدخل إلى النهضة لا يكون إلا بقوّة العسكر، وتكوين جيوش نظامية، وتوفير المدارس لتعليمها، وابتعاث الطلبة لتكوين الضبّاط. وكان محمد علي باشا والي مصر، وأحمد باي في تونس ممن ذهب هذا المذهب وتبيّن في آخر الأمر أن هذا العسكر كان عبئاً على اقتصاد قروسطي مما أدّى إلى ضعف هذه الدول فضلاً عن كون هذه المحاولة لم تحم العرب من الاستعمار. ينظر: خير الدين: أقوم: ص ٣١. (المقدمة)، ص١٣٨-١٣٩، وفصل: ١٥-١١/٥١١: Djaysh: E.I.2: (Kedourie).

٩ - هذا الإصلاح هو الذي رآه كثير من مفكري العرب - في القرن ١٩/١٣ - مدخلاً للنهضة فدعوا إلى تبني إصلاحات جوهرية تلغي الحكم الفردي وتؤدي إلى الحكم الدستوري الذي أساسه احترام القوانين التي تنشأ عن الشورى. ويعتبر خير الدين باشا التونسي (ت ١٨٨٩) وأحمد بن أبي الضياف التونسي (ت ١٨٧٤) من أشهر الدّعاة إلى هذا الإصلاح. ينظر على التوالي كتابيهما:

أقوم المسالك. وإتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. المطبعة الرسمية، تونس ط١/ ١٩٠١، وأيضاً: طبعة كتابة الدولة للشؤون الثقافية، تونس ط٢, ١٩٦٣-٦ (٨ أجزاء).

١٠ - يعتبر رفاعة الطهطاوي (ت ١٨٧٣) الذي ارتحل إلى فرنسا من أوائل الدعاة إلى اعتبار التعليم المدخل الأساسي إلى النهضة. وكرّس حياته في السعي إلى تحقيق هذه الغاية. انظر عنه فصل: Rifa'a Bey Al-Tahtawi: E.I. ٢ :V١١١/٥٢٣-٤ (k. ohrrnberg).

١١ - فكرة إبطال تجارة الرقيق بدأت تتبلور في أوربا في القرنين ١٨ و ١٩. وأوّل اتفاقية في هذا الشأن تمت بين فرنسا وإنكلترا سنة ١٧٩٤. ينظر عن الرق في أوربا: الفصل: ٨/٤٤٧٣: Esclavage: G.E. وفي العالم الإسلامي فصل: (R. Brunschvig) ٤٠-٢٤/١:٢ ᶜAbd:E.I. .

١٢ - ونشير أيضاً إلى أن فرنسا ألغته في مستعمراتها سنة ١٨٤٨. يُراجع الهامش السابق.

١٣ - كان سلاطين زنجبار على علاقة مودّة وصداقة ببريطانيا. وللاطلاع على مسألة الرقيق في زنجبار ينظر: سالمة: مذكرات: ص ٢٤٧-٢٥٣، المغيري: جهينة ص: ٥٣٤ وما بعدها، الغيث: التأثيرات ص ١٠٢-١١٣ و١٨٦-١٧٧ Barwani: Conflicts pp.

١٤ - كانت زنجبار مركزاً تجارياً للرقيق. انظر: الغيث: التأثيرات: ص: ١١٢. وقد أشار المغيري إلى وجود أسواق في زنجبار: ينظر: جهينة ص ٣٥٧.

١٥ - هذه الصفة لا تُطلق في سلطنة زنجبار وفي سلطنة عُمان (إلى الآن) إلا على الأسرة الحاكمة فقط.

١٦ - هو سعيد بن سلطان البوسعيدي (١٢١٩/١٧٩١-١٢٧٣/١٨٥٦): حكم عُمان وزنجبار في وقت واحد. كان قوياً شجاعاً، وله علاقات تحالف مع بريطانيا، وصلات مودة مع الملكة فيكتوريا. ينظر: سالمة: مذكرات، السالمي: تحفة ٢/١٩٥ وما بعدها، المغيري: جهينة ص ٢٣٢ وما بعدها، والفصلان: Sa'id b. Sultan: E. I. ٢ ١٠/٣٠٣-٤ : N.E.B (Freeman), ٧- V١١١/٨٥٦.

١٧ - المغيري: جهينة، ص ٢٥٨.

١٨ - كتابة اسم القارة بالتاء يذكّرنا بالاسم الذي أطلقه العرب على تونس عندما فتحوها. يراجع الفصل: (M. Talbi) ١١١/١٠٤٧-١٠٥٠: Ifrikiya: E. I. .

١٩ - المغيري: جهينة ص ٢٥٨. ونلاحظ أن بريطانيا نفسها هي التي أشرفت على تنفيذ بنود هذه المعاهدة فأعدّت أسطولاً بحرياً يتكون من ٨ سفن سريعة تراقب سواحل زنجبار. ينظر: الغيث: التأثيرات ص: ١٠٩.

٢٠ - ابن سعيد: تنزيه ص ٨١، وذكر المغيري أن المعاهدة تتكون من ٥٧ مادة، واكتفى بإيراد بعض مادتها. ينظر: جهينة ص ٣٥٦-٣٥٧.

٢١ - حددنا في دراسة أخرى أربعة دوافع لرحلة السلطان إلى لندن (وإن كان في الظاهر قد حل إلى أوربا) والسبب المُعلن هو الاطلاع على «أوربا الغنية بكنوز المعارف والصنائع وأسباب الحضارة والعمران (...) مما يستحق نقله إلى بلاده». ينظر: رحلات.

٢٢ - هذه هي أشهر صحف ثلاثة لندنية مع التايمز والجاردن، تم إصدارها سنة ١٨٥٥، تعتبر من الصحف الراقية في مقالاتها ... الخ، ينظر عنها فصل : Daily Telegraph:: ٣/٨٥٠ N.E. B.

٢٣ - ابن سعيد: تنزيه ص ٥٤.

٢٤ - زار السلطان حاكم لندن مرتين الأولى في بدء الزيارة (يوم ٢٥ جون ١٨٧٥) وهي «أول زيارة رسمية زار بها قلب المدينة مركز الأشغال والتجارة». والثانية في نهاية الزيارة (يوم «٢٢ جولاي أي يوليو في قاعة كيلر هول») لخلع «امتيازات لندن وحريتها على سعادته (النيشان)» ينظر: ابن سعيد: تنزيه: ص ١٢٦-١٢٧، ١٨٨-١٩٢.

٢٥ - هو نيشان شرّفت به مدينة لندن السلطان.

٢٦ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٩.

٢٧ - «هذه المدينة مركز تجارة العالم في الأصناف القطنية» في ذلك الوقت قد أقامت للسلطان «مأدبة شائقة» وقد أثنى عليه العمدة. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ١٨١-١٨٨ وأيضاً فصل: ٧٦٠-٧/٧٥٩ Manchester: N.E.B.

٢٨ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٦.

٢٩ - وصفها ابن سعيد بقوله : «فيها من البواخر والسفن المصطفة على مسافة ستة أميال. وهي لا شك أعظم ميناء وأكبرها في الدنيا» دعا واليها السلطان للفرجة على هذا الميناء، وأعدّ له «مأدبة شائقة» ينظر: تنزيه: ص ١٧٤-١٧٨ وأيضاً الفصلان: ٥-١٢/٧٢١٤: Liverpool: G.E. و٧/٤١١ N.E.B:.

٣٠ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٧٥.

٣١ - كان رئيس مجلس التجارة في منشستر من ضمن الحاضرين في استقبال عمدة المدينة للسلطان. وقد ألقى خطاباً. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٣-١٨٤.

٣٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٤.

٣٣ - هذه الجمعية تأسست سنة ١٨٢٣ واسمها: Anti-Slavery Society (جمعية إبطال الرق) وقد بدأت بإبطال الرق في بريطانيا منذ تأسيسها ثم في المستعمرات سنة ١٨٣٣. ينظر عنها فصل: Slavery: N.E.B.: ١٠/٨٧٤-٥ .

٣٤ - إضافة من عندنا ليستقيم المعنى.

٣٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ٨٢.

٣٦ - لقد إنكليزي بمعنى السيد: ينظر: بعلبكي: المورد ص ٨٥٨.

٣٧ - ذكر ابن سعيد أن بارتل فراير قدّم معلومات عن الجزيرة «في مخابراته مع الدولة البريطانية المجموعة إلى كتاب الدولة المسمى (بالأزرق)» ينظر: تنزيه ص ٤٣.

٣٨ - مما يدل على تلك الجهود هو تأسيس عدّة جمعيات منذ ١٨٠٧. وإذا كانت بريطانيا وهي تشتري العبيد قد وجدت مثل هذه الصعوبات فكيف يكون حال زنجبار؟ يراجع أعلاه الهامش ٣٣.

٣٩ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٩.

٤٠ - م. ن. ص ١٦٠.

٤١ - م. ن. ص ١٣٤، ١٧٢.

٤٢ - م. ن. ص ١٧٨ وأيضاً ٨٣، ١٧٢.

٤٣ - هو حمد بن سليمان البوسعيدي هكذا عرّفه المغيري، واكتفى بذكر أنه من «رجال مشورته». أما ابن سعيد فذكر أنه حمد بن سليمان فقط وذكر أنه ممن رافق السلطان في رحلته إلى أوربا. إلا أنّ الصفة المذكورة له في الشاهد هي من قول بارتل فراير. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ١٣، ١٤٠، المغيري: جهينة ص ٣٣٣، ٣٦١.

٤٤ - ابن سعيد :تنزيه ص ١٤١.

٤٥ - م. ن. ص ٥٥.

٤٦ - هي أوغندة، مساحتها (الآن) ٢٣٦ ألف كلم٢ منها ٤٠ ألف كلم٢ بحيرات. استعان ملكها بالإنكليز لحمايته من العرب (من جهة الشمال المصريين ومن جهة الشرق العُمانيين) صارت محمية إنكليزية سنة ١٨٩٤. عاصمتها كمبالة. ينظر عنها فصل:٦-١٥/٨٩٢٤ :Ouganda .G.E.

٤٧ - ابن سعيد: تنزيه ص ٥٥.

٤٨ - ينظر مصطلح العادة في معاجم الفلسفة مثل: روزنتال: الموسوعة الفلسفية ص ٢٨٩.

٤٩ - ينظر عن أسباب الرق : المغيري: جهينة ص ٥٣٦.

٥٠ - هذه النبتة أدخلها السلطان سعيد إلى زنجبار رغم معارضة الأوربيين بدعوى أن التربة والمناخ لا يصلحان لها. وأعطت هذه النبتة نتائج طيبة وتفوقت على زراعة السكر والأرز والسمسم الخ. ينظر عنها : المغيري: جهينة ص ٢٧٩-٢٨٤، وعن مزارعها ينظر: ص ٩٤-٩٧.

٥١ - هذه نبتة أصيلة في الجزيرة. ينظر: المغيري: جهينة ص ٨٦.

٥٢ - المغيري: جهينة ص ٥٤٠، وقد أورد قول أحد العبيد/الأحرار المسنّين: «كنا نُضرب بالعصا على ظهورنا، والآن يضربنا الجوع في باطن أجسادنا. فأي علّة أخفّ؟».

٥٣ - ابن سعيد: نزهة ص ٥٦.

٥٤ - م. ن. ص. ١٧٨.

٥٥ - م. ن. ص. ١٤٨.

٥٦ - هو الدكتور الذي «اختارته جلالة الملكة ترجماناً لسعادة السلطان لما كان بينه وبين سعادة السيد برغش من المودة القديمة» وقد وصفه ابن سعيد بالقسّ والفقيه وخليل السلطان. تنزيه ص ٣٦-٣٧، ٤١، ١٣٨. وقد أثبتت له صورة كُتب تحتها: «رسم العالم العامل والفقيه الفاضل الدكتور جرجس باجر خليل سعادة السيد برغش سلطان زنجبار» تنزيه: ص ٩١.

٥٧ - البنادر مفرده البندر، لفظة فارسية انتقلت إلى التركية ثم إلى العربية وتعني أساساً الميناء البحري، كما تعني أيضاً السوق الخ. ينظر عنها فصل: (Huart) Bandar: E.I. ٢ ١/١٠١٣.

٥٨ - كلمة عامية مفردها جلاب وهو الذي يتاجر في المواشي.

٥٩ - ابن سعيد: تنزيه ص ٨٤.

٦٠ - م. ن. ص ١٧٢.

٦١ - م. ن. ص ٨٤. ونلاحظ أن السيد سعيد قد خسر هو الآخر أموالاً طائلة بسبب محاولة إبطال تجارة الرقيق. يُنظر : تنزيه ص ٤٦.

٦٢ - المغيري: جهينة ص ٢٨٨، ٣٦٥.

٦٣ - هذه أول صحيفة أوفدت مبعوثاً لها لمقابلة السلطان. ويراجع عنها أعلاه الهامش ٢٢.

٦٤ - ابن سعيد: تنزيه ص ٥٦، ونلاحظ أن السيد سعيد والد برغش رغم الخسائر التي لحقته من محاولة إبطال الرقيق رفض مكافأة مالية. يُنظر : ابن سعيد: تنزيه ص ٦٦، المغيري: جهينة ص٢٥٨.

٦٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٩.

٦٦ - م. ن. ص ١٩٠ - ١٩١.

٦٧ - الجمعية الجغرافية الملكية تأسست في لندن سنة ١٨٣٠. قام علماؤها بأعمال استكشافية في مناطق عدة من العالم ومنها القارة الإفريقية. ينظر عنها فصل: ١٠/٢١٩ Royal Geographical Society (R. G. S.): N. E. B.

٦٨ - هذه إحدى الجمعيات التنصيرية التي ظهرت في القرن ١٩ في أوربا ونشطت في دعوتها في إفريقيا وغيرها. ينظر فصل: ٨/١٨٧٠٨: Mission: N. E. B.

٦٩ - ذكر ابن سعيد بعض أفراد هذه الجمعية الذين زاروا السلطان في مقرّ إقامته ونلاحظ أنه لا يوجد بينهم من رجال الدين إلا قسّ واحد. ينظر: تنزيه ص ١٣١-١٣٢.

٧٠ - لاحظ ابن سعيد أن هذه الجمعية «مؤلّفة من رجال إنكليز وغير إنكليز غرضها إبطال الرق من الدنيا وإلغاء التجارة ببني آدم» وذكر بعض أعضائها. وكاتم سرها قسّ. ينظر: تنزيه ص ٨١، ويراجع أعلاه الهامش ٣٣.

٧١ - لعله كريف (Krapf) الذي استكشف شرقي إفريقيا. ينظر: المغيري: جهينة ص ٢٣ (المقدمة).

٧٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٢.

٧٣ - كان الأوربيون «يزعمون أنها بلاد قفرة يسكنها قوم همج من الزنوج الخشني الطباع» وعندما ساعد العرب العُمانيون - في زنجبار - المستكشفين الأوروبيين تحولت إفريقيا إلى «بلاد سعيدة مخصبة تسكنها قبائل قابلة للتمدّن والحضارة. ومناخها ليس بسقيم كما يزعم القدماء، وهي تصلح لسكنى الأوروبيين....» ينظر ابن سعيد: تنزيه ص ٤٤، ١٩٥، المغيري: جهينة ص ٦٨، ٢٤٧-٢٥٠، ٢٨٨.

٧٤ - تم المحفل في ٢٩ جون ١٨٧٥«وكان الماجيور جنرال سار هنري رولنسن يرأس هذا الاحتفال العظيم وحضره عدد غفير من الأعيان والعلماء والأدباء والسيدات» كما حضر سفير مراكش وسفير اليابان وحاكم فيكتوريا الخ» يُنظر ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٣-١٤٩.

٧٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٤، ١٤٥.

٧٦ - م. ن. ص١٤٤، ونلاحظ أن الأوربيين (الإسبان والبرتغال) استعمروا عدّة جزر وكثيراً من سواحل إفريقيا إلا أنهم لم يجرؤوا على داخلها حتى ساعدهم العرب العُمانيون في زنجبار على ذلك. يُنظر : المغيري : جهينة : ص ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٢١٦، ٢٤٧-٢٥٠، ٢٥٦، ٢٨٧، ٢٨٨.

٧٧ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٤٤.

٧٨ - م. ن. ص ١٣٥.

٧٩ - لم نتمكن من التعرف عليه.

٨٠ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٢، وانظر نعي المغيري على إغفال «العرب خصلة من خصال المآثر الحميدة في اكتشافهم للبرّ الإفريقي وهو نشر الإسلام (...) لكن اشتغل العرب الفاتحون بجمع المال وعظمة السلطان الذي اضمحل» ينظر: جهينة ص ٢٤٨.

٨١ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٣٥.

٨٢ - وصف المغيري إفريقيا قبل استكشافها بأنها «القارة المظلمة الموحشة». جهينة ص ٢٤٩، وعن الخطر الذي كان يتهدد المستكشفين ينظر جهينة: ص ٣١٧-٣٢٦.

٨٣ - ينظر المغيري: جهينة ص ٢٤٨، ٣١٨.

٨٤ - م. ن. ص ١٦٢-١٦٤.

٨٥ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٣٢.

٨٦ - م. ن ، ص . ن.

٨٧ - يراجع الهامش ٥٢.

٨٨ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٢ - ١٣٣.

٨٩ - لم نتعرف عليه.

٩٠ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٣٢.

٩١ - قال فيها السلطان: «لن أشاهد باقي الأمم يودّون ملوكهم وملكاتهم وداد الإنكليز لملكتهم» وقال أيضاً إنها: «أشبه بحجر المغناطيس تجذب إليها قلوب الداني والقاصي» ينظر ابن سعيد: تنزيه ص ١٠٠.

٩٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٣.

٩٣ - هو السير هنري مورتن (١٨٤١-١٨٩٩): مستكشف إفريقيا الوسطى ويحمل الجنسية الإنكليزية- الأمريكية. ينظر عنه الفصل: ١١/٢١٣-٤: Stanley: N. E. B .

٩٤ - ابن سعيد: تنزيه ص ٥٥.

٩٥ - م. ن. ص ١٣٣.

٩٦ - م. ن، ص. ن.

٩٧ - طاقة البخار ما كانت لتُحدِث الثورة الصناعية لولا استعمال الفحم الحجري استعمالاً صناعياً ومُكثّفاً وقد تم ذلك في أوائل القرن ١٩. ينظر فصل Energie: G. E: ٧/٤٣٤٨.

٩٨ - هذه الطاقة المتجددة هي التي أحدثت الثورة الصناعية - إلى جانب البخار - في إنكلترا في القرن ١٨. إلا أنه لم يمكن السيطرة عليها إلا في القرن ١٩ عند اختراع المحرك الانفجاري. يراجع فصل: ٧/٤١٩٨ Electricite: G. E: .

٩٩ - ما كانت الثورة الصناعية لتحدث في إنكلترا ثم في العالم لولا الاختراعات الكبرى التي حدثت (مثل الآلة البخارية ١٧٦٩، الباخرة ١٧٧٦، المنسج الميكانيكي ١٧٨٥، التلغراف البصري ١٧٩٣، البطارية الكهربائية ١٨٠٠، القطار البخاري ١٨١٤ الخ). لمزيد الاطلاع ينظر فيصل: ١٠/٦٣٠٤-٨ Industrielle (Revolution): G. E: .

١٠٠ - ابن سعيد: تنزيه ص٩. وقد تحدّث المغيري عن حب برغش للتمدّن والعمران على الطراز الحديث. ينظر: جهينة ص ٢٩١-٢٩٦، ٢٥١-٢٥٢ وبحثنا: رحلات ص ٤.

١٠١ - ركب السلطان باخرة إنكليزية من زنجبار إلى عدن، ومن عدن ركب بارجة إنكليزية أعدّتها له الدولة البريطانية. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ١٣، ١٦.

١٠٢ - هذه اللفظة دخيلة من الفرنسية Poste وتعني البريد. ولم تعد مهمة البريد في القرن ١٣/١٩ تقتصر على الرسائل العادية وإنما أضيف إليها التلغراف (البرق). وعن زيارة السلطان لهذه الإدارة ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ٦٣-٦٤، وعنها في بريطانيا ينظر فصل: ٩/٦٣٨ . Postal System: N. E. B:

١٠٣ - هو نقل الكتابة على مسافات بعيدة بواسطة آلة بصرية أو كهربائية. أول محاولات هذا الاختراع تمّت سنة ١٧٩٢، لكن مورس الأمريكي (١٧٩١-١٨٧٢) هو الذي طوّر هذا النظام الاتصالي. ينظر الفصل: ١٩/١١٧٣٥-٧ .Telegraphie: G. E.:

١٠٤ - ابن سعيد: تنزيه ص ٦٥، أول مرّة تعرّف فيها السلطان على التلغراف عندما واجهت باخرته «محطة السلك البرقي على ساحل بلاد إسبانيا فطلب المتوظفون في إدارة السلك من قبطان باخرة السلطان أن يخبرهم بمن كان في باخرته...» وعلّق ابن سعيد على ذلك بقوله «وهذا علم جزيل الفائدة». ينظر: تنزيه ص ٢٩.

١٠٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ٦٥.

١٠٦ - إذا كانت الغرائب والعجائب من الصفات الملازمة لأوصاف الرحلات منذ القديم وهي تتمثل في الأحداث الخارقة، أو البنايات الضخمة أو الأجناس البشرية المجهولة الخ... فإنها تحوّلت في القرن ١٣/١٩ إلى غرائب الصناعة والعمران. ولهذا وجدنا ابن سعيد يقول: «ثم بعد أن تفرّج السيد برغش على كل ما كان من الغرائب والنفيس في إدارة البوسطة ...» ينظر: تنزيه ص٦٦.

١٠٧ - ابن سعيد : تنزيه ص ٦٥.

١٠٨ - هو البنك المركزي للمملكة المتحدة تأسس سنة ١٦٩٤ وهو محاذ للبرلمان. وقد قدّم ابن سعيد عنه معلومات مهمة من ناحية البناء والإدارة ونظام العمل. ينظر: تنزيه ص ١٢٧-١٣١ وفصل: . England (Bank of): N. E. B: ٤/٤٩٧

١٠٩ - هذه الدار تقع قريباً من البنك. ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٠.

١١٠ - هذا جمع، مفرده : آلة.

١١١ - يبدو أنه وقع خلط بين الليرة وهي عُملة إيطالية، والباون وهو عملة بريطانية ، ينظر عن العملتين الفصلان: Lira: N. E. B: ٧/٣٩١ و Pound: N. E. B: ٩/٦٥٠ .

١١٢ - عُملة المسلمين في الهند، في القرن ١٦م. وهي الآن عملة الهند والباكستان وسري لانكا، والروبية تُقسَّم إلى ١٠٠ بيسة. ينظر فصل Rupee: N. E. B: ١٠/٢٤٢ .

١١٣ - وصول الأوروبيين إلى الهند يُعتبر ضربة قاتلة للتجارة بين العرب والهند. فبعد البرتغال تتأسس شركة الهند الشرقية البريطانية سنة ١٦٠٢. منذ هذا التاريخ بدأ تدخل الإنكليز في الهند حتى صارت تحت حكمهم. ينظر الفصل: Inde: G. E: ١٠/٦١٨٥ .

١١٤ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٢٧.

١١٥ - م. ن. ص ١٢٧ - ١٢٨.

١١٦ - الشِلّن عُملة بريطانية الواحد يساوي ٢٠ باون. ينظر : O. R. E: p ١٣٣٦ .

١١٧ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣١.

١١٨ - راجع أعلاه الهامش ١١١.

١١٩ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٢٨.

١٢٠ - من كلمة تشيكية تعني «العمل القسري» وقد ظهرت سنة ١٩٢٤ والمقصود بها الآلة التي لها صبغة بشرية وتقوم مقامه. ينظر فيصل: Robot: N. E. B: ١٠/١١٦ .

١٢١ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٦٥، ونلاحظ أن المعمل يقع في بير منكهام التي اعتبرها السلطان «ينبوع ثروة الإنكليز الذين يهيمون بالذهب فضلاً عن غيرهم !»، تنزيه ص ١٦٧.

١٢٢ - جمع مفرده صائغي وهو المختص في صناعة الذهب.

١٢٣ - لم نتعرّف عليه.

١٢٤ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٦٦.

١٢٥ - م. ن، ص. ن.

١٢٦ - في الأصل : فيها.

١٢٧ - م. ن، ص. ن.

١٢٨ - م. ن، ص ١٦٧.

١٢٩ - م. ن، ص. ن.

١٣٠ - هي قرية صغيرة تقع شرق نورثمبتين، يُوجد بها عدة مصانع. انظر عنها فصل: ١٢/٥٧٢: Welling Borough: N. E. B.

١٣١ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٤٩ - ١٥٧.

١٣٢ - هو ملك من ملوك اليهود الجبابرة، ويبدو أنه هو الذي جادله إبراهيم عليه السلام في مسألة إحياء البشر وإماتتهم، والإتيان بالشمس من المغرب. يراجع: Namrud (Hiller) ٣- E. I. ٢ :V١١/٩٥٢.

١٣٣ - البُوتقة وعاد لصهر المعادن.

١٣٤ - مفرده مدفع، والمدفع هو سلاح ناري لرمي قذائف على هدف محدد. وقد ظهر في القرن ١٤م. ينظر عنه فصل: ٤-٢٢٧٠/٤: Canon: G. E.

١٣٥ - لعل المقصود بالدواليب العجلات التي يوضع عليها المدفع.

١٣٦ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٩.

١٣٧ - هو سلاح آلي يسمح بإطلاق الرصاص بصفة مستمرة أو متقطعة على العدو: إنساناً ومدرعات خفيفة. وقد ظهر في القرن ١٥م في شكل أنابيب متعددة تطلق النار في وقت واحد. وقد ذكر ابن سعيد أن الميتراليوز الذي شاهده يتكون «من اثني عشر أنبوباً». وفي القرن ١٨م تم صنعه من أنبوب واحد عندما تم اكتشاف الخرطوشية الدوارة. ينظر عنه: تنزيه ص ١٥٤، وفصل: Mitrailleuse: G. E: ١٣/٨٠٥٢.

١٣٨ - ابن سعيد : تنزيه ١٥٤.

١٣٩ - مفرده : كُلّة وهي قنبلة المدفع - البعلبكي: المورد ص ٨٩٨.

١٤٠ - لم نتعرف عليها فلعلّها تحريف لقنابل.

١٤١ - نوع من الأسلحة حسب السياق. أما كلمة توربيد فهي تعني الاضطراب . يُنظر : ٢٠٩ .Turbide: Robert: p.

١٤٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٥٣.

١٤٣ - الجبل من نار هو البركان.

١٤٤ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٥١.

١٤٥ - هي آلة ميكانيكية تقوم بتشكيل المعدن بفعل قوة السقوط عليه. ينظر كلمة ٦١٩ .Marteau- Pilon: P. L: p

١٤٦ - القدم مقياس إنكليزي يساوي ٤٨ر٣٠ سم. ينظر فصل: Foot: O. R. E: p ٥٣٩ .

١٤٧ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٥٢.

١٤٨ - هو إدوارد السابع (ح. ١٩٠١- ١٩١٠)وقد ولد سنة ١٨٤١. وعندما زاره السلطان برغش كان أميراً لوايلز. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ٥٨ - ٦١ (ضمنه صورة له ولأسرته) وأيضاً فصل: Edward V ١١: N. E. B: ٤/٣٧٨-٩.

١٤٩ - ابن سعيد :تنزيه ص ٦١.

١٥٠ - هذه مرتبة من مراتب النبلاء تأتي مباشرة تحت الأمير، ويكون مسؤولاً على دوقية. ينظر فصل: Duc: P. L: p ٣٥١.

١٥١ - منطقة جامعية فيها جامعة ومعاهد الخ. ينظر فصل: Cambridge: N. E. B: ٢/٧٥٩ ونلاحظ أن ابن سعيد نقل العبارة كما في اللغة الإنكليزية.

١٥٢ - ذكر ابن سعيد أن هذا الدوق هو «كبير قواد العساكر وهو ابن عمّ الملكة فيكتوريا» وأنّه «ولد سنة ١٨١٩، وله راتب سنوي من الدولة بمنزلة أمير من أمراء العائلة الملوكية» وقد ذكر راتبه بالتفصيل. وهذا من شفافية تصريف أموال الدولة في بريطانيا منذ قرنين. ينظر: تنزيه ص١٠١.

١٥٣ - يعني مكتبه، ونلاحظ عناية هؤلاء بالعلم. فهذا الدّوق كاتب له تآليفه !.

١٥٤ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٠١.

١٥٥ - يُنظر أسفله: «محاكاة» الملكة.

١٥٦ - عن حقيقة الحرب في الإسلام ينظر: ابن خلدون: المقدمة: الباب ٣، الفصل ٣٧ (٢/٧١٥). ونلاحظ أن ابن خلدون من العلماء القدماء الذين أثروا في الفكر النهضوي ينظر مثلاً: خير الدين: أقوم ص ٩٩، ١٠٢، ١١٩، ١٢٥، ١٣٢.

١٥٧ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٥٤.

١٥٨ - يعرف الإنسان الفحم الحجري منذ القرون الوسطى ولم تتجاوز الكمية المستهلكة في إنكلترا أكثر من مليوني طن في أواخر القرن ١٨. وعندما تم اكتشاف الآلة البخارية - في القرن ١٩- وصل استعمال الفحم الحجري إلى ٢٥٠ مليون طن في السنة. يراجع الهامش ٩٧.

١٥٩ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٦٠.

١٦٠ - إقامة السلطان - في لندن - طويلة (٣٧ يوماً)، لهذا تمكّن من زيارة المعالم التالية: مركض الخيل باسكوت، بستان الحيوانات، البوسطة، قصر البلور، دار الأسماك (ببرايطن)، دار البرلمان، مستشفى سانتوماس، بنك إنكلترا، معبد وستمنستر، معمل الأسلحة، معمل الأواني الفضية والذهبية (في بيرمنكهام)، ميناء ليفربول، معمل القطن (بمنشستر).

١٦١ - «هذا البستان ليس من مشروعات الدولة البريطانية بل تشكلت شركة بلندن سنة ١٨٢٦ بمبلغ وافر من رأسمال» و«ليس في باريس ولا في العالم كله بستان يحتوي على كل أجناس الحيوانات مثل هذا البستان». ونلاحظ أن هذه الشركة قد أصدرت صحيفة خاصة بها سنة ١٨٣٠. ينظر: ابن سعيد: تنزيه ص ٦٢-٦٣ وفصل: Z..: N. E. B: ١٢/٩٣١-٢ .

١٦٢ - كانت الغاية الأولى من إنشاء حديقة الحيوان في لندن معرفة فيزيولوجيا الحيوان وسلوكه - يراجع أعلاه الهامش ١٦٢.

١٦٣ - ابن سعيد: تنزيه ص ٦٢.

١٦٤ - م. ن، ص ٦٣.

١٦٥ - وسمّاه ابن سعيد: «دار الأسماك»، ومحاولات تربية الأسماك قديمة، إلا أن سنة ١٨٥٣ عرفت أول مربى بطريقة علمية فتح للجمهور في ريجنتس بارك (Regent's Park) في إنكلترا. ينظر فصل : Aquarium: N. E. B: ١/٤٤٩-٥٠٠ .

١٦٦ - هذا مصطلح يعني عالم الطبيعة (Naturalist).

١٦٧ - ابن سعيد : تنزيه ص ٧٥.

١٦٨ - وصفه ابن سعيد بأنه « أعظم مستشفى في الدنيا » فيه قسم خاص بالمرضى بالرمد (مرض العيون)، وقسم للرجال، وقسم للأطفال، وهنالك قسم في طور البناء. ومصاريفه تبلغ ٣٠,٠٠٠ ليرة في السنة. ينظر: تنزيه ص ١١٣- ١١٥.

١٦٩ - يقصد الطابق الأعلى أو الدور الأعلى.

١٧٠ - ابن سعيد : تنزيه ص ١١٤.

١٧١ - مفرده مخدع، والمقصود قاعات.

١٧٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١١٤.

١٧٣ - م. ن، ص ١١٥.

١٧٤ - مفرده مُقْعَد ، وهو العاجز عن الحركة .

١٧٥ - ابن سعيد : تنزيه ص ٥٤.

١٧٦ - المقصود بالقصر : العمارة.

١٧٧ - ابن سعيد: تنزيه ص ٥٤.

١٧٨ - م. ن، ص. ن.

١٧٩ - هذه جريدة أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤/١٨٨٧) الإصلاحي المعروف أصدرها في القسطنطينية سنة ١٨٦٠ وغايتها الدفاع عن الإسلام. وتعتبر أعظم جرائد القرن ١٣/١٩. وقد جمع الشدياق مقالاته في جريدته في سبع مجلدات. للتعرف عليه وعلى جريدته ينظر: كحالة: معجم ٢/٤١-٢ وفصل: Djarida: E. I ٢:١١/٤٦٦ (Pellat).

١٨٠ - هذه جريدة أصدرها لويس صابنجي (ت ١٣٥٠/١٩٣١) ببيروت ثم انتقل إلى لندن وأصدر جريدتين « الاتحاد العربي » و « الخلافة، ثم انتقل إلى الأستانة. له مؤلفات عديدة ونلاحظ أنه هو الذي رتب « تنزيه الأبصار ». يراجع عنه أعلاه هامش ٦.

١٨١ - المقصود «الوقائع المصرية» التي أصدرها محمد علي باشا والي مصر للتعبير عن قرارات حكومته. وهي أسبوعية. صدرت في ١٧ جمادى الأولى ١٢٤٤/٢٠ نوفمبر ١٨٢٨. ينظر عنها فصل : Djarida: E. I. ٢:١١/٤٦٥ .

١٨٢ - هي أول صحيفة عربية في تونس صدرت في ١٨٦٠/٧/٢٢، وهي أسبوعية. وكانت ضمن إصلاحات عدّة شجّع عليها خير الدين باشا المصلح المعروف وصاحب «أقوم المسالك». ينظر عنها فصل : Al-Ra'id Al-Tunusi: E. I. ٢ :V١١١/٤٠١-٢ .

١٨٣ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٥٩. ونلاحظ أن المغيري أثنى على السلطان في حب العلم والعلماء فقال مثلاً «محفوف المجلس بالهيبة والوقار، مزيّن بالعلماء والأخبار» وقال أيضاً «قرّب العلماء وآوى الفضلاء» وأضاف موضحاً «كان من ترتيب مجالسه أن جعل وقتاً لتلاوة القرآن الكريم، ووقتاً لدرس العلوم الدينية. ووقتاً لمقابلة شؤون المملكة، ووقتاً للنظر في حاجاته الخصوصية، ووقتاً للنظر في أحوال الدعاوي والشكايات، ووقتاً للنظر في القضايا المهمة». يراجع: جهينة ص ٣٢٧-٣٣٠.

١٨٤ - اتفق المؤرخون على أن شخصية هذا السلطان قوية وجذّابة. يراجع أعلاه الهامش ١٦.

١٨٥ - هي فيكتوريا الأولى: ملكة بريطانيا العظمى وإرلندة من ١٨٣٧ إلى ١٩٠١، وإمبراطورة الهند من ١٨٧٦ إلى ١٩٠١. تعتبر أعظم ملكة عرفتها بريطانيا، إذ في عهدها عرفت هذه الدولة اتساعها وعظمتها وقوّتها. ينظر الفصلان : G. E: ٢٠/١٢٥٨١-٤، ٣٤٩-٥٠/ Victoria: N. E. B :١٢ .

١٨٦ - ابن سعيد: تنزيه ص ٩٩.

١٨٧ - لم يرد ذكر اسمه ضمن المستكشفين، يراجع أعلاه الهامش ٦٧.

١٨٨ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٦.

١٨٩ - هذا من جملة مصطلحات استعملها النّهضويون في القرن ١٣/١٩. وخير الدين ممن استعمل هذا المصطلح في قوله لتبرير الأخذ عن أوربا والاقتباس منها: «وكل متمسّك بديانة، وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يُستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية كما تفعله الأمّة الإفرنجية فإنهم مازالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسناً من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد». ينظر : أقوم ص ٩٠ وما بعدها وأيضاً مقدمة الكتاب.

١٩٠ - لمزيد من الاطلاع على ما نتج عن فكرة « الاقتداء » من اختلاف وجهات النظر يراجع بحث ساباياراد: الرحالون، خاصة الفصل الأول.

١٩١ - لم يحدد ابن سعيد الوزراء الذين كانوا مع السلطان فقد أورد أسماء أربعة من المصاحبين دون تحديد مهامهم وذكر اسم قاض واسم كبير تجار الهند في زنجبار واسم قبطان بحرية واسم قابض المالية وابن سعيد نفسه، بينما الوفد المصاحب يتكون من ١٩ رجلاً. ينظر تنزيه ص ١٣.

١٩٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٦٠.

١٩٣ - م. ن، ص ٩٩.

١٩٤ - م. ن، ص ١١٤.

١٩٥ - م. ن، ص ١٠١، ويراجع الهامش ١٥٢.

١٩٦ - م. ن، ص ١٠٠.

١٩٧ - قال المغيري في سياسة السلطان برغش إنه « الملك الهمام » وأنه لم يتكل « على غيره في جميع أموره، على ما كان عليه من فخامة الملك وحاشية القصر، ووجود الأكفاء والأمناء والأعيان ممن لهم المعرفة والخبرة التامة، وفيهم الكفاءة في إدارة شؤون المملكة » ينظر: جهينة ص ٣٢٧، ويراجع أعلاه الهامش ١٨٣.

١٩٨ - ابن سعيد: تنزيه ص ٦١.

١٩٩ - م. ن، ص ١٧٧.

٢٠٠ - هو خير الدين باشا التونسي (١٢٢٥/١٨١٠-١٣٠٨/١٨٩٠). شركسي الأصل. من رجال الإصلاح الإسلامي، تولّى الوزارة. له أعمال إصلاحية عديدة في تونس. له « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ». ينظر : الزركلي: الأعلام ٣٢٧/٢ والفصل: (Van Kricken) ٥- Khayr Al-Din Pasha: E. I. ٢ :١ V/١١٥٣ .

٢٠١ - من النهضويين من ذهب إلى أن أوربا إنما تقدمت بفعل خصبها وكثرة أمطارها الخ. وقد رد خير الدين على هذا الزعم: ينظر: أقوم ص ٩٧.

٢٠٢ - ذكر ابن سعيد أن هذا الجنرال « كان سفير الدولة البريطانية سابقاً في زنجبار ». ينظر تنزيه ص١٤٦.

٢٠٣ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٦، ولمزيد الاطلاع عن خصب زنجبار ينظر: المغيري: جهينة ص ٧٢-٧٦.

٢٠٤ - ذكر المغيري أن التجارة بالعاج من جملة السلع المتداولة في زنجبار، ينظر جهينة ٢٧٩، وعن أهمية العاج في الأعمال الفنية في أوربا ينظر فصل : Ivorie: G. E: ١١/٦٥٨٢-٣ .

٢٠٥ - ذكر المغيري أن شجرة القرنفل كانت «موجودة بالهند وسيلان وموريس ومدغشقر» و «لما شبّ القرنفل المغروس في زنجبار والجزيرة الخضراء وصار يُثمر قطعوا قرنفلهم عن آخره» ينظر: جهينة ص ٢٧٩، ويراجع أعلاه الهامش ٥٠.

٢٠٦ - لم يرد ذكره عند المغيري.

٢٠٧ - السكر والأرز والسمسم هي أهم المنتوجات الفلاحية قبل عصر القرنفل. يراجع: المغيري: جهينة ص ٢٧٩.

٢٠٨ - لم يذكره المغيري من جملة المنتوجات الفلاحية ، فلعل إنتاجه ضعيف.

٢٠٩ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤٦.

٢١٠ - كانت المواد الأولية من أسباب الاستعمار.

٢١١ - ذكر المغيري أن بالجزيرة «أشجار القرنفل والنارجيل والبرتقال». ينظر: جهينة ص ٧٤.

٢١٢ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٧٦.

٢١٣ - من أشهر صحف لندن إلى جانب الدايلي تلغراف والجاردن أنشأها جون والتر سنة ١٧٨٥. ينظر عنها فصل : Time (the): N. E. B: ١١/٧٨٠ .

٢١٤ - في الأصل : الغناء.

٢١٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٩٤.

٢١٦ - م. ن، ص ١٦٠.

٢١٧ - م. ن، ص ١٩٤.

٢١٨ - م. ن، ص. ن.

٢١٩ - عن محاولات التوغل في أعماق إفريقيا من قِبَل العرب العُمانيين ينظر: المغيري: جهينة ص٣١٧-٣٢٦.

٢٢٠ - ابن سعيد: نزهة ص ١٩٤ - ١٩٥.

٢٢١ - م. ن، ص ١٧١.

٢٢٢ - م. ن، ص ٥٦.

٢٢٣ - م. ن، ص. ن.

٢٢٤ - م. ن، ص. ن. ونلاحظ أن هذا الكلام نُشر في صحية «الديلي تلغراف».

٢٢٥ - م. ن، ص ١٧١.

٢٢٦ - م. ن، ص ١٧٢.

٢٢٧ - هذا العنصر المساعد هو الذي اختلف فيه دعاة النهضة والإصلاح. يراجع. مقدمة هذا البحث، خير الدين: أقوم: ص ٥٢ - ٦٣ (المقدمة) ٩٤ - وما بعدها، ساباياردِ: الرّحالة: عدة فصول.

٢٢٨ - توطّدت العلاقة بين السلطان سعيد والإنكليز منذ ١٧٩١، قال المغيري «كان السيد سعيد (...) حليفاً أميناً لإنجلترا لا أقل من نصف قرن ومضيفاً ملوكياً للمئات من البوارج الحربية البريطانية ....»، ينظر: جهينة ٢٣٤. ونلاحظ أن أول سفارة بين السيد سعيد في زنجبار وبريطانيا كانت سنة ١٨٤١، يراجع أعلاه الهامش ١٦.

٢٢٩ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٧٢.

٢٣٠ - م. ن، ص. ن. وأيضاً ص ١٧٨.

٢٣١ - م. ن، ص ١٧٧.

٢٣٢ - م. ن، ص ٦٥.

٢٣٣ - م. ن، ص ١٢٩.

٢٣٤ - المقصود بالميناء هو السطح الذي توضع عليه أرقام الساعة.

٢٣٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٢٩-١٣٠.

٢٣٦ - ذكر ابن سعيد أن مدينة منشستر مركز تجارة القطن في العالم، يراجع أعلاه الهامش ٢٧.

٢٣٧ - لقي السلطان برغش إقبالاً شعبياً في كل الأماكن التي حلّ بها أو تنقّل فيها للزي العربي الذي كان يلبسه. فقد ذكر ابن سعيد أنه كان يلبس «رداء في زي جبّة من الشال الأسود وعلى زيقها وأكمامها نقش بالقصب والحرير الملوّن وعليه ثوب أبيض من الكتان الخالص، وفي يده خاتم ثمين من الذهب الإبريز منضد بحجر زمرد كريم جداً. وكان حاملاً سيفاً نفيساً وخنجراً قبضته من الفضة النقية. وكان غطاء رأسه عمامة مزركشة ومتمنطقاً بشال كشمير عال مزركش بالذهب ومعلقة فيه ساعة من ذهب في سلسلة من الذهب الإبريز الخالص» . تنزيه ص ١٦٣-١٦٤، وللاطلاع على لقاء الشعب للسلطان ينظر: تنزيه ص ١٣٠، ١٦١، ١٦٨. ١٨٢، الخ.

٢٣٨ - أي نياشين.

٢٣٩ - مفرده شفاف وهو الثوب الرقيق. وقد لاحظ ابن سعيد أن السلطان كاد يُبلّل لأن ملابسه رقيقة- تنزيه ص ١٦٣.

٢٤٠ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٧.

٢٤١ - ولهذا تخوّف أرباب الضيعات والحقول - في زنجبار - من انهيار إنتاجهم بإدخال منع تجارة الرقيق. يراجع أعلاه موقف السلطان.

٢٤٢ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٨٧ - ١٨٨.

٢٤٣ - م. ن، ص ١٨٨.

٢٤٤ - لعل المدة الطويلة (٣٧ يوماً) التي قضاها في لندن تدخل ضمن محاولات السلطان إقناع المسؤولين الإنكليز بواجب معاونته.

٢٤٥ - ابن سعيد : تنزيه ص ١٧٢ - ١٧٣.

٢٤٦ - مهمّة هذه اللجنة مراقبة صحة السمك في سوق السمك قبل عرضه للبيع ولها شيخ مفوض «من واجباته أن يختار أحسن السمك ويرخّص ببيعه، وما لا يستحسنه كان يأمر بحرقه وإتلافه» ينظر عنها : ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٧ - ١٣٨.

٢٤٧ - كلمة عمدة تعني هنا الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم جميعاً.

٢٤٨ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٣٨.

٢٤٩ - في الأصل : الغناء.

٢٥٠ - الهنود كانوا قابضين على حركة التجارة في زنجبار، وكان لهم «كبير تجار» مقيم في زنجبار، وقد صحب هذا الكبير (تاريا توين) السلطان برغش في رحلته إلى أوربا، ويبدو أن وكيل السلطان في عدن هندي. ينظر ابن سعيد: تنزيه ص ١٣، ٦٤.

٢٥١ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٤١.

٢٥٢ - م. ن، ص ١٧٦.

٢٥٣ - م. ن، ص ١٨٤.

٢٥٤ - خرم هنا بمعنى نكث.

٢٥٥ - ابن سعيد: تنزيه ص ١٨٤.

٢٥٦ - أحسنت الملكة استقبال السلطان، أو هكذا شعر. فقد أجلسته «بجانبها على كرسي جميل كانت الخدم أعدّته له فجلس عليه بوقار ملوكي وأخذ يتفاوض مع الملكة باللغة العربية وحضرة الدكتور باجر يترجم» وليس هذا فقط بل إن الملكة قد بعثت بصورتها إليه بعد أن فارقها «فتناولها (...) بعزّ وإكرام، ينظر ابن سعيد: تنزيه ص ١٠٠، ٢٣١.

٢٥٧ - السلطان هو الذي زار ولي العهد، والمقابلة ليست رسمية «بل مقابلة ودّية وقلبية». ابن سعيد: تنزيه ص ٥٨ - ٦١.

٢٥٨ - السلطان هو الذي زار هذا الدّوق، وهي زيارة ودية، ابن سعيد: تنزيه ص ١٠١.

٢٥٩ - حسب النص الذي بين أيدينا لم يذكر ابن سعيد أن رئيس البرلمان قد استقبل السلطان رغم أنه أطال الإقامة ليطلع على كيفية المناقشة والمفاوضة بين الأعضاء. ينظر: تنزيه ص ١٠٢-١١٣.

٢٦٠ - وصل السلطان لندن في ٣ جمادى الأولى وغادرها في ١١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٢.

٢٦١ - ينظر ابن سعيد : تنزيه ص ١٩٣ - ١٩٦.

٣٦٢ - هو ناصر الدين شاه (ح. ١٨٤٨-١٨٩٦) في عهده عمل وزيره ميرزا تقي خان على استقلال

بلاده من تدخل الروس من الشمال والإنكليز في منطقة هراة والخليج العربي إلا أنه قُتل ودخلت إيران في دوامة الفوضى والتدخل الإنكليزي. ونلاحظ أنه زار لندن سنة ١٨٧٣. ينظر الفصل: Iran: G. E: ١١/٦٤٣٩ .

٢٦٣ - والي مصر (ح ١٨٦٣-١٨٧٩) في عهده صار الحكم وراثياً، وتم شق قناة السويس وسعى إلى التوسع في منطقة وادي النيل إلى البحيرات. ذكر ابن سعيد أنه «قد طمع في توسيع ملكه وأرسل فوجاً من جنوده إلى أواسط إفريقية وأمرهم أن يفتحوا تلك البلاد ويستولوا عليها إلى خط الاستواء»، ولكن اضطر أخيراً إلى سحب جنوده» لأن «رجال السياسة في أوربا لم يسمحوا لسعادة خديوي مصر أن يسطو على بلاد السيد برغش ويغزوها». وواضح أن الأوربيين يقفون إلى جانب السلطان لأنه لا يستطيع أن يقف في وجوههم. ينظر ابن سعيد: تنزيه ص ١٩٥، وفصل: ٥-Ismaeil Pasha: N. E. B: ٦/٤١٤.

٢٦٤ - حجة الأوربيين عموماً والإنكليز خصوصاً على ذلك أن السلطان برغش وصل إلى البحيرات، والحقيقة أن السلطان - عندهم - يسهل الانقضاض عليه، على عكس خديوي مصر.

٢٦٥ - لعلّه من قبيل التوقع لحركة التاريخ فالمائة عام لتوسع مملكة زنجبار هي التي سينتهي فيها الحكم العربي العُماني في زنجبار (سنة ١٩٦٤).

# المصادر والمراجع

## ١ - باللغة العربية :


- ابن سعيد(زاهر) : **تنزيه الأبصار والأفكار في رحلة سلطان زنجبار**. وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ط١٩٨٨/٢م.
- حسين (حسني محمود) : **أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس، لبنان، ط١٩٨٣/٢م.
- خير الدّين (التونسي) : **أقوم المسالك في معرفة أحوال المالك**. تحقيق منْصف الشنّوفي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٧٢.
- روزنتال (وآخرون): **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت (١٩٩٧؟).
- سابايارد (نازك): **الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**. مؤسسة نوفل، لبنان، ١٩٧٩م.
- سالمة (بنت السلطان سعيد): **مذكرات أميرة عربية**. ترجمة عبد المجيد القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، (١٩٧٤؟).

(هذا الكتاب يُعتبر ترجمة ذاتية لهذه الأميرة التي غادرت قصر أبيها السلطان سعيد في زنجبار إلى ألمانيا حيث تزوجت وتنصرّت. وقد كتبته باللغة الألمانية، ونشرته ببرلين سنة ١٨٨٦).

- السالمي (نور الدين) : **تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان**، مكتبة السالمي، مسقط، سلطنة عُمان ١٩٩٥ (جزءان).
- الشتيوي (أحمد): **رحلات سلطانين عُمانيين زنجباريين إلى أوربا**. مقال سينشر في: مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر.
- الشتيوي (أحمد): **مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة والأندلسيين وثقافتهم بين القرنين ١٢/٦ و ١٨/١٢**. رسالة دكتوراه الدولة، مرقونة، كلية الآداب، بتونس ١٩٨٨.
- الغيث (حمامة خلفان): **التأثيرات العُمانية في زنجبار، دراسة انتروبولوجية ميدانية**، رسالة ماجستير، ١٩٨٨ (مرقونة) توجد منها نسخة بمكتبة جامعة السلطان قابوس.

- المغيري (سعيد): **جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ط٢ , ١٩٨٦ (هذا الكتاب هام سعى فيه كاتبه إلى إظهار العمل الذي قام به حكام عُمان في زنجبار. إلا أن الكتاب يحتاج إلى تحقيق علمي).
- نصّار (حسين) : **أدب الرحلة** ، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩١.

## ( ب ) المعاجــم :

- الأعلام (للزركلي) : دار العلم للملايين، بيروت ط٧/١٩٨٦.
- دائرة المعارف الإسلامية (د. م. إ) الأولى.

أصدرها باللغة العربية : أحمد الشنتناوي، إبراهيم زكي خورشيد، عبدالحميد يونس، مراجعة د.محمد مهدي علام، دار المعرفة، بيروت، (١٩٣٣؟).

- معجم المؤلفين (لرضا كحالة)، دار إحياء التراث العربي؛ بيروت، د. ت.
- المورد (لمنير بعلبكي): (مزدوج عربي – إنكليزي) دار العلم للملايين، ط١/١٩٩٧.

## ٢ - باللغة الأجنبية :

- Al-Barwani (Ali Muhsin): **Conflicts** and Harmony in Zanzibar (Memoirs); w.d; unknown publisher.
- Encyclopaedia of Islam; Leiden, 1986; (E.I.2).
- Grande Encyclopedie (Larousse); Paris, 1971; (G. E.).
- New Encyclopaedia Britannica; London, 1973; (N. E. B.).
- Oxford Reference English; 2nd Edit; Oxford University Press 1996; (O. R. E).
- Petit Robert 1; Paris 1990; (Robert.).
- Petit Larousse; Paris 1992 (P. L.).